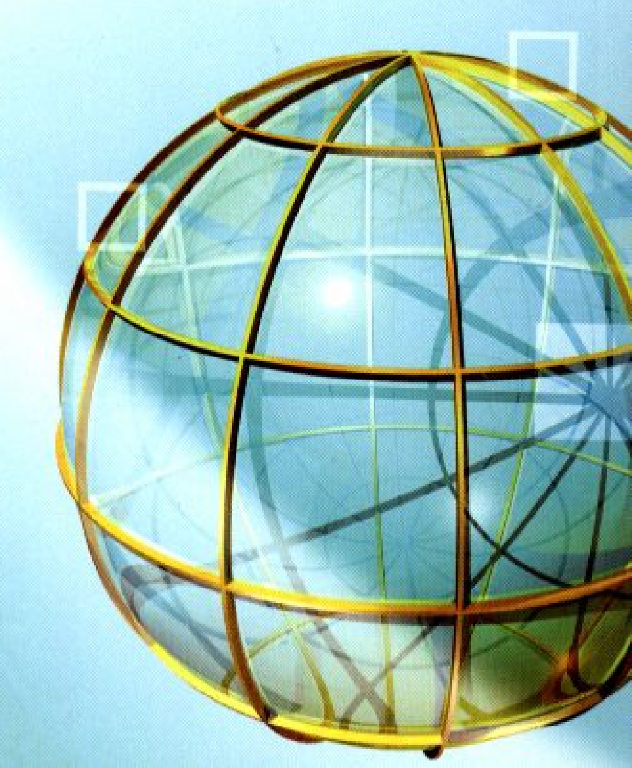
صالح الحصيِّن

العلاقات الدولية

بين منهج الإسلام ومنهج الحضارة المعاصر





صالح الحصيِّن

العلاقات الدولية
بين
منهج الإسلام ومنهج الحضارة المعاصرة

العبيكان
Obeikan

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحصين، صالح عبدالرحمن

العلاقات الدولية بين منهج الإسلام ومنهج الحضارة المعاصرة./صالح عبدالرحمن الحصين.- الرياض ١٤٢٨هـ

٩٨ ص؛ ١٤×٢١سم

ردمك: ٤ - ٣٦٠ - ٥٤ - ٩٧٨

١ - العلاقات الدولية في الإسلام أ. العنوان

ديوي ٢٥٧,١ ٦٢٩٤ / ١٤٢٨

ردمك: ٤ - ٣٦٠ - ٥٤ - ٩٧٨ رقم الإيداع: ٦٢٩٤ / ١٤٢٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

الناشر



الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤١٦٠٠١٨ فاكس ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم



الفهرس

الموضوع | الصفحة

*****



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

شهد القرن المنصرم خلال خمس وعشرين سنة حربين عالميتين أبيد فيهما عشرات الملايين، لم يكن القتلى من المحاربين فقط؛ بل من الأطفال والنساء والرجال غير المحاربين.

وتميزت الحرب الثانية من الحربين بأفظع عمليات التدمير التي لم تكن ضرورة الحرب تقتضيها، بل كانت استجابة لحقد الإنسان ورغبته في الانتقام، فحتى بعد أن تقرر مصير الحرب جرى قصف شامل ودون تمييز لمدن مثل: درسدن الألمانية وهيروشيما اليابانية.

لقد كان استخدام القنبلة النووية في تدمير هيروشيما ونجاساكي إيذاناً بحلول عصر جديد من الرعب يواجه البشرية.

وحين رأى العالم رأي العين أكثر من مئة ألف من غير المحاربين يقضى عليهم بضربة واحدة أدرك مدى الخطر الذي يهدد الإنسان.

ما إن انتهت الحرب العالمية الثانية حتى كاد الناس يجمعون على أن البشرية أشرفت على عصر جديد من عصور الحضارة، عصر أزمة مفزعة شاملة قرَّبت بين شعوب العالم لكن بشعور الخوف الذي يستولي على القلوب.

لقد رأى كثير من مفكري الغرب أن الحرب وما ترتب عليها إنما هي ظاهرة من ظواهر انعدام الروح الحضاري، وانعدام هذه الروح راجع إلى عدم التوازن بين التقدم المادي والتقدم الروحي.

في هذا المعنى كتب الفيلسوف اللاديني برتراند رسل: «لم يعد للمذاهب العقدية ولا القواعد التقليدية للأخلاق والسلوك سلطانهما الذي كان لهما من قبل، كثيراً ما يستولي الشك على قلوب الناس فيما هو خير وما هو شر، وعندما يحاولون أن يصلوا إلى رأي في ذلك يواجهون عقبة لا يستطيعون اقتحامها، إذ ليس هناك أمامهم هدف بيّن يسعون إليه، أو مبدأ واضح يهتدون به»[1]، «هناك فقط مجموعتان من العقائد أمام الرجل الغربي عندما يكون منهوك القوى الروحية: نظام روما ونظام موسكو وكلاهما لا يخلقان مجالاً للرجل الحر»[2].

وصف تشرشل القرن الماضي (بالقرن الفظيع)، ولا يلوح في الأفق ما يبشر بأن القرن الحالي سوف يكون أقل فظاعة.

استهل هذا القرن، والبشرية تمر بأخطر أزمة عرفها التاريخ، أزمة خلقها مزيج مشؤوم من قوة الدمار وإرادة الإنسان الطليقة من أي قيد أخلاقي أو قانوني.

(1) B. Russell, New Hope For a Changing World, P.8.
(2) Ibid. P.8 .

إن دولة واحدة تستعد بثمانية آلاف رأس نووي جاهزة للإطلاق تبلغ قوتها التدميرية مجتمعة مئة وستين ألف ضعف قوة التدمير لقنبلة نجاساكي.

ويعظم الخطر أن نقرأ تقريراً لأحد وزراء الحرب في تلك الدولة يلخص سياسة بلاده: «إن سياستنا النووية غير أخلاقية وغير قانونية وغير ضرورية من الناحية العسكرية، وخطرة على البشرية بصورة مرعبة»(1) ويقر هذا الوزير أن قرار إطلاق القوة النووية المدمرة بيد رجل واحد. يمكن أن يتخذه خلال خمس عشرة دقيقة.

شهد القرن المنصرم حربين عالميتين خلال خمسة وعشرين عاماً، واستهل القرن الحالي بحربين عالميتين خلال خمسة عشر شهراً.

لم يكن الزمن هو الفارق الوحيد بين حربي القرن المنصرم، وحربي القرن الحالي.

كانت حربا القرن المنصرم بين قوى متكافئة يمثل كلٌّ من طرفيها تهديداً للطرف الآخر: قوى التحالف الدولي the allied powers من

---

(1) روبرت ماكنمارا، واقتربت الساعة، مجلة فورن يوليسي مايو - يونيو ٢٠٠٥م.
Robert Mcnamara, “Apocalypse Soon”, Foreign Policy Magazine, May / June 2005
http://WWW. Foreignpolicy. com/story/cms. php? Story-id=2829

جانب، والقوى الأوربية المركزية the central european powers من جانب آخر، في الحرب العالمية الأولى، وفي الحرب العالمية الثانية: قوى التحالف الدولي United Nations powers من جانب، وقوى المحور axis powers من جانب آخر.

أما في حربي القرن الحالي فلم يكن هناك تكافؤ بين قوى التحالف الدولي، وأفغانستان، أو بين قوى التحالف الدولي والعراق، وما كان لأي من الدول المشاركة في التحالف الدولي في الحالين أن تفكر أن أفغانستان أو العراق يمثل تهديداً لها، هل يمكن أن تهدد أفغانستان النرويج أو العراق أستراليا؟

لكن صفة مشتركة برزت بين الحروب الأربعة، قيام التحالف الدولي بعمليات عسكرية لا تقتضيها الضرورة الحربية، وإنما اقتضاها التنفيس عن الحقد والاستجابة لداعي الكراهية والعدوانية والرغبة في الانتقام.

السلوك اللاإنساني في الحرب علامة دالة على مدى تخلق الإنساني الغربي المعاصر بالروح الحضاري ومدى قدرته على الخلاص من وحشية العصور التي يسميها عصور الظلام.

كلا، لا يتصور أن إنسان عصور الظلام كانت ستخطر في باله مثل هذه الفكرة الشريرة: تصنيع وتخزين جراثيم وباء (الجمرة الخبيثة) تمهيداً لاستعمالها كأحد أسلحة الدمار

الشامل. وأن يبذل لهذه الغاية الوقت والجهد وأفكار العلماء وأموال دافعي الضرائب، ويسخِّر التكنولوجيا التي تصل بهذا المنتج الشرير إلى معدل ترليون جرثومة في الجرام الواحد من الجراثيم التي سوف تنشر الوباء.

في القرن المنصرم أسهمت الثنائية القطبية للعالم عن طريق توازن الرعب بين العملاقين في تفادي الحرب.

وتميز هذا القرن بانتشار وتطور أسلحة الدمار الشامل وسيادة النظام الرأسمالي؛ هذا النظام الذي هو بطبيعته يتغذى بالحرب ويخلق الطبقية، وكلا الأمرين لا يسمح بأن يكون على الأرض السلام، وتعني هذه الحقائق أن الخطر المروِّع المحدق يتعاظم، ويُجَسِّد هذا الخطر المنهج المعاصر السائد الحاكم للعلاقات الدولية.

ومن هنا تظهر أهمية البحث عن منهج في العلاقات الدولية يختلف عن المنهج السائد الفاعل في الحياة المعاصرة. وهذا هو ما دعا إلى كتابة هذا المقال الذي سوف يهتم بالمقارنة بين المنهج المعاصر في العلاقات الدولية والمنهج الذي جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرناً.

لقد صُمِّمَ هذا المقال على أساس غياب شخصية محرره، وعلى أن يكون عبارة عن (ألبوم) من الصور الواقعية للأحداث والأفكار، ولم يتدخل المحرر إلا عند الضرورة وبغرض ربط الصور بعضها ببعض.

وقد اعتمد في إيضاح منهج الحضارة المعاصرة على كتاب بروفسور جوزيف فرانكل المعنون (العلاقات الدولية) ترجمة الدكتور غازي عبد الرحمن القصبي الطبعة الثانية، وكل النصوص الموضوعة بين حاصرتين المتبوعة بأرقام الصفحات غير المنسوبة لمؤلف آخر هي نصوص مقتبسة من الكتاب المذكور. وفي إيضاح منهج الإسلام اعتمد على نصوص القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة وفق حكم علماء الحديث.

وقد كُتِبَ أصل هذا المقال في أثناء وعقب الحرب الأفغانية الأخيرة (٢٠٠١)؛ فكان من الطبيعي أن تكون بعض أحداثها جزأ من الأمثلة التوضيحية للنصوص التي تضمنها المقال.

ويشتمل المقال على فصل أول عن المنهج المعاصر في العلاقات الدولية، وفصل ثان عن منهج الإسلام، وفصل ثالث عن منهج أصلاحي مقترح من قبل بعض كبار المفكرين الغربيين، وفي النهاية خاتمة المقال فيما يمكن أو يجب عمله.

وبالله التوفيق.

المؤلف

*****

الفصل الأول

العلاقات الدولية في الحضارة المعاصرة

إن الحضارة المعاصرة مرادف لفظي صحيح للحضارة الغربية؛ ذلك أن سلطان هذه الحضارة وشيوع فلسفتها للحياة، مضافاً إلى جاذبية سمعة التقدم التكنولوجي والمادي لديها جعل تأثيرها يصل إلى أعماق النفس البشرية، بل ويطرد أو يزاحم جزئياً أو كلياً القيم الثقافية للحضارات الأخرى ليحل محلها.

هناك خاصيتان أساسيتان تطبعان منهج العلاقات الدولية في الحضارة الغربية (أو إذا شئت الحضارة المعاصرة):

أولاهما: هشاشة القوة الإلزامية لقواعد القانون الدولي المفروض أن تحكم العلاقات الدولية.

ثانيهما: هشاشة الأساس الأخلاقي الذي يرتكز عليه المنهج.

فمن الناحية الأولى: يُلاحظ في البدء أنه «كما أن أهم القواعد التي تحكم سلوك الأفراد تتجسّد في القانون الوطني.. فكذلك نجد بعض القواعد التي تحكم سلوك الدول مجسدة في القانون الدولي، ومع هذا فالتشابه في الاسم لا يعني تماثلاً في طبيعة القانونين. إن القانون الدولي يعمل في محتوى اجتماعي

مختلف تماماً، كما أنه لا ينهض في اتفاق اجتماعي شأن القانون الداخلي ودون سلطة مركزية تضمن تطبيق الجزاء على مخالفة قواعده، والدول تختلف عن الأفراد من حيث إنها لا تعد من رعايا القانون؛ ذلك لأن القانون الدولي ليس قانوناً فوق الدول، وإنما هو قانون بين الدول. وهذا الوضع لا يتفق وطبيعة النظام القانوني إلى درجة أن بعض رجال القانون ينكرون الطبيعة القانونية للقانون الدولي كليةً؛ مدعين أنه يفتقر إلى الخاصية الأساسية، وهي الجزاءات الفاعلة، لا يمكن منطقياً أن تتعايش دول ذات سيادة مع نظام قانوني دولي له طبيعة الأنظمة القانونية الداخلية. إما أن تكون الدول ذات سيادة فلا تعترف بقوة أعلى، وفي هذه الحالة لا يمكن أن تكون هناك قواعد قانونية ملزمة لها، وإما -إن وجدت مثل هذه القواعد- أن لا تكون الدولة ذات سيادة بالمعنى الصحيح؛ وهذا التناقض تحله نظرية القبول التي تذهب إلى أن الطبيعة الملزمة للقواعد القانونية مبنية على قبول الدولة لهذه القواعد ... ونظراً لأن القانون الدولي قائم على هذا الحل الوسط القلق فليس من الغريب أن نجد اختلافاً كبيراً حول تقييم أهميته، فبينما يعتبره بعضهم مجرد قانون صوري يرى بعضهم الآخر أن رجال القانون بإمكانهم لو أتاح لهم رجال السياسة المجال أن يضعوا مجموعة من القواعد القانونية تكفل السلام على الأرض» (ص ١٧١-١٧٢).

ومن الناحية الثانية: فإن الحضارة المعاصرة (الحضارة الغربية) بالنسبة للقيم الخلقية بوجه عام تعاني من:

(أ) انحسار الإيمان بالله الذي يمكن أن يكون أساساً للالتزام الخلقي، وكما يعبر د. هوفمان: «عوَّض الغرب خسارته في الإيمان بالله بإيمان لا حدَّ له بالتقدم الذي جعل العالم يبدو أكثر استنارة وعقلانية... رغم كوارث المئة عام الماضية يبدو بطريقة لا تصدَّق أن الإيمان الأبله للغرب بالإله الجديد "التقدم" ما زال سائداً... (ولكن)، هل لم يستطع الناس أن يتحققوا أن الحكم المستنير للعقلانية والإنسانية لم يمنع حربين عالميتين وحشيتين استخدم فيها... القصف الإستراتيجي على المدنيين في مدن مثل درسدن... هل إستراتيجية مبنية على الردع المتبادل مع التهديد بالإبادة النووية تعتبر عقلانية؟!... يمكن للمفكِّرين الغربيين أن يستنتجوا - وقليل منهم فعلوا - أن الأحداث الرهيبة للقرن "العشرين" نفت إمكانية أن تعتمد الأخلاق على التقدم. تسليم الإنسان للأوامر الأخلاقية الإلهية - ولا شيء غير ذلك - يمكن أن يضبط الأعمال الأخلاقية للأفراد والجماعات»[1].

(ب) سيادة فكرة النسبية في القيم الخلقية، وليست النسبية محكومة دائماً بالعقل والمنطق، ولكنها - في الغالب إن لم يكن دائماً - محكومة بالهوى والوهم وإيحاءات الـ culture.

---

(1) مراد هوفمان، الإسلام عام ٢٠٠٠ (الترجمة العربية) ص ٢٦ .

لقد كان من الطبيعي أن تتأثَّر الأخلاق في العلاقات الدولية في الغرب بنظرته إلى الأخلاق بوجه عام، ولا يقتصر الأمر على هذا، فمن وراء ذلك تعاني القوة الإلزامية للقيم الأخلاقية في مجال العلاقات الدولية من عوامل ضعف وإضعاف أخرى وربما أبلغ.

يقول الدكتور رينولد نيبر: «إن البشر بدلاً من أن يمدوا قواعدهم الأخلاقية لتشمل السياسة الدولية ينزعون إلى استخدام السياسة للتنفيس عن نزعاتهم اللاأخلاقية، وأنهم بالتالي بشر أخلاقيون في مجتمع لا أخلاقي» (ص ١٧١).

وحتى عندما نسلم بأن للقيم الأخلاقية أثراً ما في العلاقات الدولية تواجهنا مشكلة أخرى، هي الغموض في تحديد الأخلاق الدولية. «إن الذي يجعل الأخلاق الدولية على ما هي عليه من غموض هو أن معناها لم يحدَّد قطُّ بوضوح، كما أنه لم يوجد بعدُ اتفاقٌ بين المفكِّرين على العلاقة بين قواعد الأخلاق الفردية وقواعد الأخلاق الدولية، تذهب إحدى المدارس الفكرية متبعة في ذلك ميكيافيلي إلى إنكار الأخلاق الدولية كلية... غير إن أي تحليل واقعي للعلاقات الدولية لا يسعه أن يتقبل دون مناقشة دعاوى رجال السياسة المكررة في كل البلدان بأنهم محكومون بالقيم الأخلاقية. إن من الواضح أن الأخلاق كثيراً تُستدعى وبأسماء مختلفة لا لشيء إلا لإضفاء قدر من الاحترام على

المصالح الأنانية للدولة، كما أن اللجوء إلى الأخلاقية تبرير شائع مريح في يد الطرف الذي يعارض الحقوق القانونية لطرف آخر» (ص١٦٩).

«لا بدَّ أن يكون الإنسان هو المقياس، غير أن هذا لا يغير حقيقة أن الدول ليست أفراداً، وأن الأفراد الذين يعملون باسمها يفكرون قبل كل شيء في مصالحهم الوطنية» (ص١٧١).

لعل النتيجة التي ينتهي إليها القارئ مما سبق أن الحقيقة الواقعية هي أن العلاقات الدولية في الحضارة المعاصرة ترتكز أساساً إن لم يكن كلياً على المصلحة الوطنية، والقوة. وليس على القانون والأخلاق.

١- المصلحة الوطنية.

«المصلحة الوطنية هي "المفتاح الأساسي" في السياسة الخارجية، ويرتد هذا المفهوم في جوهره إلى مجموع القيم الوطنية، تلك القيم النابعة من الأمة والدولة في الوقت نفسه، غير أن هذا المفهوم لا يخلو من غموض... وإذا كان من الصعب بيان المقصود بالمصلحة الوطنية بفكرة مجردة، فإن من المستحيل أن نجد إجماعاً على ما تعنيه في قضية معينة. إن الجدل المتكرر حول السياسة الخارجية يتركز حول التفسيرات المختلفة لمتطلبات المصلحة الوطنية... ليس من الضروري أن نعرِّف المصلحة

القومية تعريفاً ضيقاً يستبعد الاعتبارات الخُلُقية والدينية وما على شاكلتها، وإنما تقتضي فاعلية هذه المصلحة الوطنية استيعاب هذه الاعتبارات كجزء منها... تحكم تصرفات الساسة جميعاً مصالحهم الوطنية المختلفة، غير أنَّ هذا لا يعني أنه ليس بوسعهم ألبتة الاتفاق على شيء ما، بل على العكس كثيراً ما يتفقون، وإن كان هذا الاتفاق ينطلق أيضاً من مصالحهم الوطنية، فإذا وافق سياسي على تقديم تنازلات فإنه لا يفعل ذلك إلا إذا اقتنع أن عمله سيعطي دولته بعض المزايا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة... إن فكرة المصلحة الوطنية مبنية على وجود قيم في الجماعة الوطنية، هذه القيم التي يمكن أن نعتبرها من نتاج ثقافتها ومعبِّراً عن روح تجانسها... غير أنَّ العلاقة بين هذه القيم وبين الأهداف السياسية المحددة تتطلب شرحاً أكبر، إن القيم تنتمي إلى مجال "ما يجب أن يكون"، وليس من الضروري أن تترجم إلى أهداف سياسية محددة... إن النظم القيمية يعوزها اليقين عامة، بل إنها أحياناً تتضمن قيما متضاربة، الأمر الذي يثير مشكلة: أي من هذه القيم الواجب التطبيق في الحالات المفروضة؟... وقد تتعقَّد الأمور أكثر من ذلك، وقد يستهدف الساسة التضليل من وراء تصرفاتهم، بل إنه طبقاً لنظرية فرويد لا يعرفون بالضبط حقيقة الدوافع التي تُسيرهم، وأخيراً فإن الثقافات المختلفة لا تعطي الأهمية لنفس القيم...

ولقد كان الإنسان يسعى طوال تاريخ الفكر السياسي إلى تصوير قيمة عليا تتخذ معياراً عاماً لتصرفاته، وللأسف فإن مجرَّد وجود نظريات متناقضة في هذا الموضوع يعني الشكَّ في إمكانية أن تكون أي منها صحيحة كل الصحَّة. ومعيار المصلحة الوطنية - بالرغم من شعبيته - شديد الغموض... وعندما تصطدم قيمتان أو أكثر فيما بينها فإن الأهمية النسبية لأي منهما يجب أن تقدر وترسى... وهذا التصنيف للقيم ليس سهلاً؛ لأن التركيز على أهميتها يتراوح من حالة إلى أخرى، وكثيراً ما تحكمه العواطف... لا تبلغ القيمة ذروة مدلولها السياسي إلا في الممارسة، أي عندما يحاول رجل الدولة أن يطابقها بالصورة الذهنية التجريدية الغامضة التي لديه عن البيئة... وهمزة الوصل الأساسية بين البيئة ورجل الدولة هي المعلومات... وبالرغم من أنه بإمكان كبار المسؤولين أن يطلعوا اطلاعاً تاما على المعلومات المتوافرة لحكوماتهم، إلا إنَّهم لا يستطيعون - بأي حال من الأحوال - هضم كل هذه المعلومات، وعندما تُحمل المعلومات إليهم فإنها تكون في العادة قد تكثفت وانفصلت عن الواقع إلى درجة تسمح بإساءة تفسيرها تماماً. ولكي يختار المرء ما يمكن الاعتماد عليه من بين خضم المعلومات والأحداث يجب أن يكون لديه معيارٌ لذلك الاختيار لتحديد أهميتها... وعملية تفسير الحقائق والوقائع ليست معقولة تماماً. ولكنها غالباً ما

تتأثر بالعواطف وبنزعة البشر في أن يطمسوا ما لا يسرهم، وبالتفكير المفرط في التمني... وهكذا يتضح أن ما نعرفه عن بيئتنا بعيد عن الواقع إلى درجة أننا بدلاً من أن نتكلَّم عن المعرفة يجب أن نستخدم كلمة "الصورة الذهنية"... وبمجرد أن يكوِّن السياسي صورة ذهنية عن موضوع أو عن دولة أخرى فإن هذه الصورة الذهنية تصبح بمثابة جهاز لتنظيم المزيد من المعلومات ومصفاة تمر من خلالها هذه المعلومات، ولهذا فالصورة الذهنية لا المعلومات هي التي تحكم السلوك السياسي» (ص٥٢).

لا بد أن يستنتج القارئ من الشرح السابق صعوبة تعيين المصلحة الوطنية الحقيقية، وأنه ليس من الضروري أن تكون محكومة بمعايير موضوعية، كما يستنتج قابليتها للمرونة والتكيف في يد صانع القرار. وسيكون في إمكانه نتيجة لذلك أن يقيِّم مدى أهلية المصلحة الوطنية لأن تكون أساساً للعلاقات الدولية.

٢- القوة.

«إن مشكلة القوة تدخل جميع أنواع العلاقات الدولية، في الحروب والمنافسات تدخل القوة بمعناها العسكري، وفي التعاون يدخل التهديد بالقوة لقمع أحد الأطراف. يدور عالم السياسة كله حول ممارسة القوة والبحث عنها، غير أن القوة في السياسة الدولية أوضح بكثير وأقلُّ قيوداً من القوة في السياسة الداخلية.

ولهذا فكثيراً ما تسمى السياسة الدولية بسياسة القوة ... ولقد أدى الدور المهم الذي تلعبه القوة في العلاقات الدولية إلى نشوء مدرسة فكرية تفسر العلاقات الدولية على ضوء مفهوم القوة ... (ولكن) بالرغم من أن القوة تلعب دوراً مهمّاً في السياسة الدولية، فإنها في الأساس وسيلة لتحقيق قيم وطنية، والسياسة الدولية لا تحددها القوة التي تملكها الدولة فحسب، وإنما تحددها بدرجة أكبر القيم التي تعتنقها هذه الدول، ومفهوم المصلحة الوطنية التي تحكم سلوك الدول لا يقف عند اعتبارات القوة وحدها» (٩٣-٩٤).

على أنا إذا استعدنا الشرح السابق عن المصلحة الوطنية، فربما يصح الافتراض بأن القوة تحكم تعيين المصلحة القومية أكثر مما تحكم المصلحة الوطنية القوة.

«من الصعب أن تقيِّم القوة تقييماً مجرَّداً، فبإمكان القوة أن تكون في خدمة أهداف سيئة وأهداف خيرة على السواء. ومن المستحيل قطعاً إزالة القوة. والمشكلة التي تواجهنا ليست في كيفية إزالة القوة، ولكن في كيفية السيطرة عليها وإبقائها ضمن القنوات المشروعة» (ص٩٤).

وعند الحديث عن عناصر القوة ينبغي أن نلاحظ «أن قوة الدولة يمكن أن تجزأ إلى عدد من عوامل متميزة، ويميز أكثر الكتَّاب بين خمس مجموعات في هذا الصدد: الديموجرافية

والجغرافية والاقتصادية والتنظيمية والسيكولوجية والاجتماعية والإستراتيجية الدولية» (ص ١٠١).

يبحث جوزيف فرانكل موضوع الدعاية والإعلام ضمن حديثه عن أدوات وتقنيات التعامل بين الدول.

ونظراً لتعاظم تأثير الدعاية والإعلان في هذا الوقت، وأنه أصبح قوةً خطيرةً مؤثِّرةً فإن من المناسب الحديث عنه ضمن الحديث عن القوة.

«تعني الدعاية عموماً أيَّ محاولة للتأثير على عقول وعواطف وتصرفات جماعة معينة تحقيقاً لهدف عام معين... والدعاية نشاط أناني لا تحكمه إلا اعتبارات المصلحة الوطنية للقائم بالدعاية؛ ولهذا فهو نشاط لا تقبله الدول الأخرى، ولا تحتوي الدعاية على أي محاولة للوصول إلى حل وسط بين المصالح الوطنية المتنافية، بل ينحصر هدفها في تحقيق امتيازات وطنية للقائم بالدعاية؛ ولهذا فإن الدعاية - كما تعمل اليوم - لا تخدم - بالنظر إلى النظام الدولي - سوى أغراض سلبية... ولقد باءت كل المحاولات الدولية التي بذلت للتخفيف من غلواء الدعاية - إن لم يكن السيطرة عليها - حتى الآن بالفشل» (ص١٢٣).

«والمشكلة الأولى في كل النشاطات الدعائية هي كيفية إيصال الدعاية إلى الأشخاص الموجهة إليهم، وهذه إلى حد بعيد

مشكلة تكنولوجية، ويتوقَّف حلها على وجود موارد وخبرة كافية، وهناك عندما تتمكن الدعاية من الوصول إلى جمهورها مشاكل نفسية صعبة شبيهة بتلك التي تواجه الإعلام التجاري، كيف يمكن الحصول على اهتمام الناس؟ وكيف يمكن الوصول إلى رد الفعل المطلوب؟ وهذه الأسئلة هي التي تحدِّد طريقة العرض، ومن الوسائل السهلة في الدعاية تقديم الأخبار والمعلومات بأكبر قدرٍ من الدقة والموضوعية وترك القارئ أو المستمع يكوِّن الاستنتاجات التي يريدها... ومن الصعب بطبيعة الحال تحقيق الموضوعية الكاملة، وحتى في أكثر الإذاعات حرصاً على الحقائق والتجرُّد لا بدَّ أن تكون هناك عملية اختيار بين مختلف الأخبار على أساس تفضيل الأنباء التي تفيد الدولة صاحبة الإذاعة» (ص١٢٥-١٢٦).

على أن الغالب أن يستخدم بدل الموضوعية التظاهر بالموضوعية. «أما التقنية المعاكسة فهي تقنية "الكذبة الكبرى" وقد استعمل هتلر هذه التقنية متبعاً الفكرة التي عرضها في كتابه "كفاحي"، وهي أن الكذبة إذا كانت كذبة كبرى وردِّدت ترديداً كافياً فسوف يصدِّقها الجماهير تصديقاً جزئيّاً على الأقل. إذ إن أكثر الناس يفتقرون إلى سعة الأفق اللازمة لإدراك أن ترديد تصريحاتٍ ما لا يعني صحَّتها، وفرض رقابة على مصادر الإعلام الأخرى أمر ضروري لنجاح هذه التقنية» (ص١٢٦).

على أنَّ تقنية "الكذبة الكبرى" ليس اكتشافها ولا تطبيقها بفعالية امتيازاً لشخص معين، فالواقع أن ممارسة هذه التقنية أمرٌ شائع سواء في الدول الدكتاتورية أو الديمقراطية. «والجمهور في العادة لا يهتمُّ بالاستماع إلى التحليلات الطويلة حول صواب أو خطأ قضية ما، ولكنه يستجيب بسرعة للشعارات البسيطة حتى ولو لم يكن لها ارتباط وثيق بالقضية، ما دامت هذه الشعارات تشمل عبارات ذات محتوى عاطفي كالسلام والعدوان» (ص١٢٦)، «ويزداد تأثير الدعاية زيادة كبيرة عن طريق التكرار والثبات عبر مدةٍ طويلةٍ من الزمن، كما يزداد بإزالة المصادر الأخرى للمعلومات أو التشويش عليها» (ص١٢٧).

إن أهمية الدعاية والإعلام تظهر في الاستئثار بتشكيل الرأي العام الذي يفترض أن يجسِّد المصلحة الوطنية. «وكما يقول دافيد هيوم: "على الرأي العام تبنى الحكومة، وهذه القاعدة تنطبق على أكثر الحكومات استبداداً وعسكرية، كما تنطبق على أكثرها حرية وشعبية"» (ص٥٠).

وبما أن الرأي العام يتأسس على المعلومات يُلاحظ أنه بينما يطالب الراديكاليون «بتوفير معلومات أكثر للجمهور، يذهب الآخرون الأقل راديكالية وبخاصة الدبلوماسيون منهم إلى حجبها في المسائل الخطيرة، وإلى تقديمها فيما عدا ذلك، وعلى شكل

يجعل الجمهور يميل في الاتجاه المطلوب. وهذا كله يثير مشاكل الإرشاد. إن فكرة الديمقراطية لا تعني التزام القادة بالرأي العام التزاماً مطلقاً، وإنما تعني بل وتقتضي أحياناً أن يتولَّوا قيادة هذا الرأي» (٥١).

إن الدعاية تستند إلى عاملَيْن: عامل إيجابي، وعامل سلبي. العامل الإيجابي يتمثَّل في التقنية الفاعلة في خطابها للمتلقي، والعامل السلبي يتمثَّل في القابلية الذهنية (الإسفنجية) للامتصاص لدى المتلقي واستعداده لتصديق المعلومات.

وللإيضاح يمكن ذكر مثلين حديثين من تداعيات حادث ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية.

فبالنسبة للعامل الإيجابي: في اليوم الأول للحادث شحنت ذهنية المتلقي بالإيحاءات بأن مسلمين - ولا غيرهم- وراء تدبير وتنفيذ العملية المرعبة. وفي اليوم التالي غطيت شاشات التلفاز في الولايات المتحدة الأمريكية بصور الأخوين بخاري الطيارين السعوديين مع التأكيد بأنهما قادا طائرتين من طائرات الهجوم على مركز التجارة العالمي، ومبنى البنتاجون، ثم تبع ذلك الأخبار عن توصل الأجهزة الأمنية للتعرف على هويات تسعة عشر شخصاً المشاركين في تنفيذ العملية، وملأت صورهم وأسماؤهم الصحف، وشاشات التلفاز، والمباني العامة وحوائط المطارات

المحلية والعالمية، مع طلب المعلومات ممن يعرف أي شيء عن أيٍّ منهم، وأكَّد الإعلام توصل الأجهزة الأمنية لمعرفة جنسيات أحد عشر شخصاً من هؤلاء بأنهم سعوديون.

وقد انكشف خلال الأيام القليلة التالية أن أحد الأخوين بخاري توفي قبل سنة، وأن الآخر لا يزال حياً يرزق، كما انكشف أن ثمانية من الأحد عشر سعودياً الذين عرفت الأجهزة الأمنية هوياتهم بأنهم ضمن الانتحاريين لا يزالون أحياء يتمتعون بحياتهم خارج الولايات المتحدة الأمريكية. أما الانتحاري التاسع الذي وجد جواز سفره سليماً فلا تزال كيفية وصول هذا الجواز إلى الإدارة الأمريكية لغزاً لم يحل.

وحتى بعد انكشاف هذه الحقائق بمدة طويلة ظلت صور الأحياء وأسماؤهم تزين حوائط المباني العامة والمطارات الدولية.

على أن الأمر الذي يحمل أكثر من دلالة أن الإعلام الأمريكي وغير الأمريكي – على خلاف العادة بالاهتمام باقتناص الخبر المثير، وليس أكثر إثارة من ظهور المنتحرين أحياء – لم يهتمَّ بهذه المعلومات الحقيقية المثيرة، بل تم تجاهلها إلى حدٍّ كبير.

نتيجة تغييب هذه المعلومات المثيرة في الإعلام فإن قليلاً مَن الناس عرفوها.

ولكن هل كان نشر المعلومات الزائفة وحفاوة الإعلام بها نتيجة لخطأ غير مقصود وقع صدفة؟ وهل تتكرر الصدفة عشر

مرات؟ وإن كان مقصوداً فهل كان الهدف منه إحداث صدمة نفسية للمملكة العربية السعودية تخلق عندها الشعور بالذنب والاستعداد للتكفير عنه؟ أم إن الهدف استعادة ثقة الشعب الأمريكي بأجهزته الأمنية، وقدرتها على التعامل مع مثل هذا الحدث؟ أم إن الهدف إقناع الشعب بحكمة القرارات التي ستتخذها حكومته فيما عرف بالحرب ضد الإرهاب؟! مهما كانت الإجابة فهي توضح عن مدى قوة تأثير الإعلام.

وبالنسبة للعامل السلبي: فكمثال أذكر تجربة شخصية لي عندما كنت أتابع الأخبار عن الحادث الإجرامي يوم ١١ سبتمبر. فقد تواترت منذ اليوم الأول مجموعة من الأخبار تصف الدرجة العالية من التقنية التي تم بها تخطيط وتنفيذ العملية، إذ كما قال السيناتور بات روبرتز: بذل جهد كبير في التخطيط ولم تغفل التفصيلات الدقيقة، واستعملت تكتيكات عالية التقنية sophisticated tactics في التنفيذ. وكما وصف ملحق مجلة التايم september, 11-2001: إن كل الطائرات المهاجمة نفذت بعناية تعديلات المسار بما في ذلك المناورة المدهشة جداً للرحلة رقم ٧٧، حيث اتخذ الطيار الانتحاري مساراً منخفضاً ثم حرف الطائرة ٢٧٠ درجة قبل صدم الجدار الغربي لمبنى البنتاجون. وكشفت الأخبار أن نائب الرئيس الأمريكي أخبر الرئيس في أثناء تحليقه في الجو أن الـ law enforcement and security agencies مقتنعون

بأن طائرة الرئيس مستهدفة. وتأيد ذلك عندما ذَكر فيما بعد مساعدو الرئيس - كتفسير لتأخر وصول الرئيس إلى البيت الأبيض - أنه كانت هناك أدلة معتمدة على استهداف طائرة الرئيس من قبل مدبري الخطة الإرهابية، وكان الأمر من الجدية بحيث إن الرئيس ونائبه أصرا على وجوب اتجاه طائرة الرئيس إلى قاعدة عسكرية آمنة بأسرع وقت ممكن، وإلى درجة أن الإعلاميين على ظهر الطائرة أُمروا بعدم استعمال هواتفهم النقالة، بل بعدم إبقائها مفتوحةً حذراً من أن يُستدل بها على موقع الطائرة.

ثم كشف أن ما أكد هذه الأدلة اتصال تحذيري بنائب الرئيس من مجهول استطاع أن يخترق سرية الاتصال بالبيت الأبيض، ثم تواترت مجموعة أخرى من الأخبار والصور وآراء الخبراء الأمنيين والسياسيين التي تؤكد أن وراء تدبير الخطة وتمويلها رجلاً يقيم على بعد سبعة آلاف ميل.

وحتى بعد ما نشر تصريح مدير المباحث الأمريكية بأن الخاطفين لم يتركوا وراءهم أي أثر يدل على صلتهم بغيرهم وأنه لم يوجد في أمريكا أو في أفغانستان قصاصة ورق تدل على صلة الخاطفين بغيرهم فقد ظل هذا التفسير المقدم للحادث حقيقة مسلمة في خطاب الإعلام وتصريحات الساسة.

لقد تلقيت هاتين المجموعتين من المعلومات كما تلقاها غيري دون أن ألاحظ ضعف الانسجام بينهما، حتى سمعت تعليقاً لأحد المحلِّلين يلاحظ فيه أن القول بأن رجلاً محدود القدرات، تخضع - لمدَّة طويلة- نشاطاتُهُ واتصالاتُهُ لمراقبة ومتابعة أقوى الأجهزة الذكية: الأمريكية والإسرائيلية والهندية والروسية، وربما أجهزة أخرى يستطيع دون معونة من قوة داخلية عالية النفوذ تدبير خطة إرهابية على درجة من الإحكام والتقنية العالية ويخترق كل دفاعات الولايات المتحدة الأمريكية؛ بحيث يستطيع أن يهدد بجدية طائرة الرئيس الأمريكي أثناء تحليقها في الجو، يعني أن هذا السوبرمان لابد أنه يملك قدرات ميتافيزيكية، حتى يبلغ هذا المستوى من الخطورة. كما يملك هذه القدرات الخاطفون في تنفيذهم المناورات المذهلة للطائرات المهاجمة دون أن يكون من بينهم طيارون محترفون على مستوى عال من المران والتدريب.

*****

إن الأمثلة التطبيقية السابقة توضح النصوص المقتبسة عن المصلحة القومية والقوة.

أما فيما يتعلق بصلة القانون الدولي والأخلاق بالعلاقات الدولية، كما شرحتها النصوص المقتبسة، فإنَّ المتتبِّع لظروف

الحرب الأخيرة ومسيرتها وما ترتَّب عليها في ضوء المعلومات التي أفلتت من الحصار الإعلامي، وفي ضوء ما صدر من تصريحات عن قادة الحرب ورجال الدولة في جانب التحالف الدولي، **المتتبعُ لذلك سيجدُ صوراً واقعيَّةً معبِّرةً أوضحَ تعبيرٍ عن معاني النصوص المقتبسة.**

في حرب فيتنام وقعت انتهاكات للمعايير الخلقية الإنسانية ولقواعد القانون الدولي وأثارت الرأي العام العالمي، ولكنها - كما قيل - كانت صادرة عن جنود أو ضباط ثانويين.

أما في حرب "التحالف الدولي - أفغانستان" **فإن انتهاك القوات البرية والجوية في التحالف الدولي للمعايير الإنسانية وقواعد القانون الدولي والاتفاقات الدولية لم يصدر فقط عن القادة العسكريين، بل ساندته تصريحات رجال الدولة والسياسة.** وكان موقف الإعلام الأمريكي من المذبحة الفظيعة لأسرى طالبان في قلعة كيلا جانجي مثلا بحيث وصفه الكاتب والسياسي الكندي ستيفن جوانز بأن «اتجاه الإعلام الأمريكي لا أسمع، لا أرى، لا أتكلم».

ولاحظت the Globe and Mail في إصدارها ٣٠ نوفمبر ٢٠٠١ أن البحث في المعلومات الكومبيوترية عن صحف الولايات المتحدة الأمريكية يظهر الغياب الكامل تقريباً لأي معالجة

للقضية المشار إليها، وحتى المنظمات الدولية الإنسانية كان موقفها wishy-washy كما وصف الكاتب داني تششتر منظمة حقوق الإنسان human rights watch في نيويورك. لقد هال هذا الوضع محرِّراً مثل روبرت فسك فكتب في الإندبندنت (٢٩ نوفمبر ٢٠٠١) مقالاً بعنوان: «نحن الآن مجرمو الحرب»، وأشار في هذا المقال إلى قول الرئيس الأمريكي الأسبق ترومان (بمناسبة محاكمة نوربمرج) : «إن إعدام شخص أو عقابه دون أن تثبت إدانته في محكمة عادلة لا ينسجم بسهولة مع الضمير الأمريكي، ولن يذكره أطفالنا بالفخر». وذلك بمناسبة الحديث عن تقديم الأسرى لمحاكم عسكرية سرية.

بيد أنه بعد خمسين سنة صار ما وصفه ترومان أمراً منسجماً بسهولة مع الضمير الأمريكي، وقد لا يذكره الأطفال الأمريكان بالفخر، ولكنهم لن يشعروا تجاهه بالخجل.

ربما صح الافتراض أن السلوكيات التي صدرت عن قوات التحالف الدولي لا تعتبر حوادث عرضية، وإنما تدل على ظاهرة تعبر عن منحنى في التطور الأخلاقي والإنساني لمنهج العلاقات الدولية، وصلة هذا المنهج بالقانون والأخلاق في الغرب، مما يستحق أن يؤخذ في الاعتبار عند تقييم المنهج.

ربما يعتقد القارئ أن ما سبق استطراد بعثه تداعي المعاني لكن في الحقيقة **هو مقصود لذاته، الهدف منه أن يكون كالرسوم**

التوضيحية للنصوص المقتبسة التي استخدمت في هذا المقال لتوضح عن طبيعة منهج الحضارة الغربية في العلاقات الدولية، وصلة هذا المنهج بالقانون والأخلاق. ويرجى أن يكون القارئ بضمها ذهنياً إلى النصوص المقتبسة المشار إليها أقدر على فهمها بصورة أعمق.

خلاصة ما سبق:

إنَّ هناك خصيصتين تطبعان منهج العلاقات الدولية في الحضارة الغربية (الحضارة المعاصرة):

أ- هشاشة القوة الإلزامية للقواعد القانونية المفروض أن تحكم العلاقات الدولية.

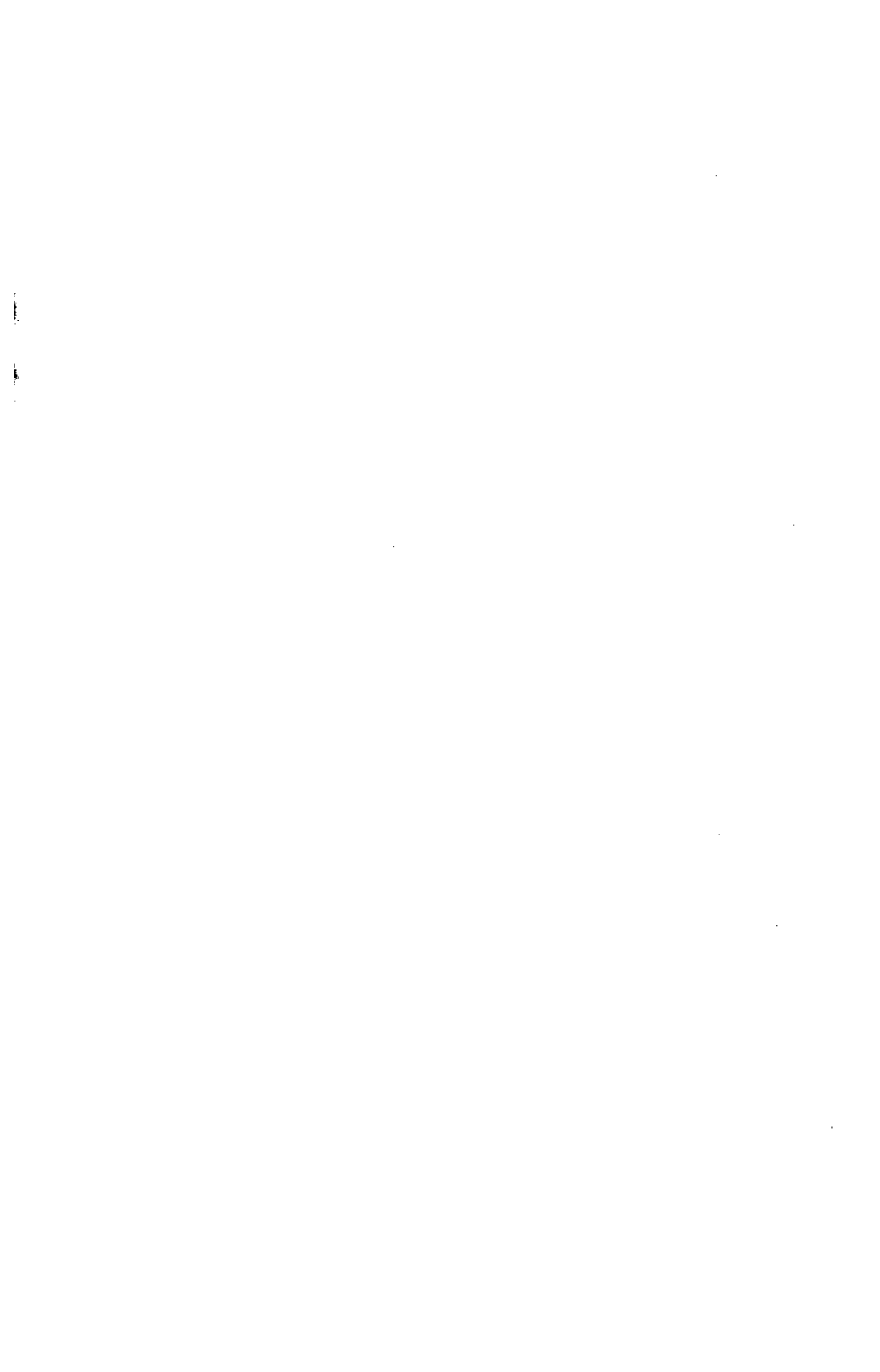
ب- هشاشة الأساس الأخلاقي الذي يرتكز عليه المنهج.

ولذا كان من الطبيعي أن تكون العلاقات الدولية مؤسسَّةً في هذا المنهج على المصلحة الوطنية والقوة.

على أنَّا إذا رأينا أنَّ المصلحة الوطنية الحقيقية يصعب تعيينها، وأنَّه ليس من الضروري أن تحكم بمعايير موضوعية، وأنَّها قابلةٌ بصفةٍ فائقةٍ للمرونة والتكيُّف في يد صانع القرار، وأنَّ للإعلام مع هشاشية صدقه وضعف موضوعيته وخضوعه للأهواء والمصالح الخاصة الدورَ الأهمَّ في تعيين المصلحة الوطنية، وأنَّ القوة كما لاحظنا تحكم تعيين المصلحة الوطنية أكثرَ مما تحكم المصلحة الوطنية سلوك القوة.

عندما يستدعي القارئ إلى ذهنه الحقائق السابقة فسيكون قادراً على تقييم مدى سلامة منهج الحضارة الغربية في العلاقات الدولية، وصلاحية هذا المنهج لإبعاد شبح الفناء والدمار الذي يتهددً البشرية.

*****



الفصل الثاني

العلاقات الدولية في الإسلام

(العدل) هو القاعدة الأساسية في تنظيم علاقة المسلم بغيره، ويشمل ذلك العلاقات الدولية - كما سنرى- والعدل في هذا المجال- وكما تظهر نصوص القرآن والسنة- هو القيمة الأولى بين القيم الإسلامية، وفي القرآن ورد الأمر بالعدل والإشادة بالمتَّصفين به، والنهي عن الظلم والتشنيع على مرتكبيه في أكثر من ثلاث مئة وخمسين موضعاً. ويعبر عن العدل أحياناً بالقسط وإقامة الميزان أو بما يدل على هذا المعنى، كما يعبر عن الظلم بالبغي والعدوان والبخس والطغيان.

والعدل في الإسلام قيمة مطلقة ذات ميزان واحد يلتزم به المسلم كواجب أساسي في المنشط والمكره، وفي حالة الصداقة والعداوة، في القول والعمل، وفي الفعل والترك. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

قال المفسرون: المعنى: لا يحملكم بغض قوم يقاتلونكم في الدين على أن لا تعدلوا في معاملتهم.

ويشهد لهذا التفسير الآية الأخرى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة ٢).

ولم يكن أحد أعدى للمسلمين من الذين صدوهم عن المسجد الحرام وقاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم. (انظر أيضاً الآية ١٣٥ من سورة النساء).

والعدل مطلوب في القول والعمل: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ (الأنعام ١٥٢).

العدل هو الحد الأدنى في معاملة المسلم لغيره، ولكن المسلم مدعو وراء العدل إلى درجات أعلى: فإذا كان العدل يتحقق بالمعاملة بالمثل، فالمسلم مدعو في القرآن والسنة إلى الصبر والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة والبر والإحسان.

قال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦).

وقال تعالى: ﴿وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ (أي اليهود) ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. (المائدة ١٣).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (الشورى: ٣٩-٤٣).

وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة ١٠٩).

وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ (المؤمنون: ٩٦).

وقال تعالى: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٤-٣٥)

وفي وصف عباد الرحمن قال تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان ٦٣).

وعلى القاعدة الأساسية (العدل) تبنى أحكام العلاقات الدولية في الإسلام، سواء في حالة الحرب أم في حالة السلم، على التفصيل الآتي.

أولاً: في حالة الحرب:

يلاحظ في البداية من نصوص القرآن دلالتها على أن أشنع عمل للإنسان في علاقته بغيره (سفك الدماء، وإرادة العلو في الأرض، والفساد فيها).

فالأول اعتداء على حياة الإنسان، والثاني اعتداء على حريته، والثالث اعتداء على ما به حياته. وكثيراً ما يذكر القرآن هذه الشرور مرتبطة ببعضها؛ ذلك أنها كذلك في الواقع. فكل منها في الغالب سبب للآخر ونتيجة له في حلقة شريرة لا نهاية لها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠).

وقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة: ٣٢).

وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً﴾ (الإسراء: ٤).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾ (الإسراء: ٣٣).

وفي وصف المستحقين للجزاء الأخروي الحسن: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣).

وقال تعالى: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (هود ٨٥ والشعراء: ١٨٣).

وفي التشنيع على فرعون قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (يونس: ٨٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤).

وقال تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٧ والرعد: ٢٥).

وفي ذم اليهود قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة: ٦٤).

وبالجملة فإن ذم القتل بغير حق والعلو في الأرض والفساد فيها ورد في القرآن في أكثر من مئة وعشرين موضعاً.

وإذا سمح الإسلام بالقتل فإن ذلك يكون محصوراً في الحالات التي يكون القتل فيها الوسيلة الوحيدة لمكافحة ولدفع

هذه الشرور؛ وذلك كما في حالة القصاص قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (القصص: ١٧٩).

وكما في حالة الجهاد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١).

وقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ (الحج: ٣٩).

وكما في حالة قطاع الطرق قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا﴾ (المائدة: ٣٣).

لكل ما سبق كان من الطبيعي أن تكون الحرب في الإسلام مكروهة في الجملة، ينبغي ما أمكن تفاديها، وفي المعنى جاء الحديث الشريف عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاثْبُتُوا**» (متفق عليه). وكان من الطبيعي أن لا يسمح الإسلام بالحرب إلا في حالة الضرورة الشرعية، وهي حالة الجهاد[1] وفي هذه الحالة تحكم الجهاد مبادئ ترتكز على القيمة الأساسية (العدل).

(1) مصطلح الجهاد في الإسلام يراد به ثلاثة عشر معنى كما ذكر ذلك ابن قيم الجوزية في كتاب زاد المعاد- أول هذه المعاني جهاد النفس كما جاء في الحديث الشريف «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله»، وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر كما جاء في حديث آخر، والمراد هنا من معاني الجهاد - القتال في سبيل الله.

تتلخص المبادئ التي تحكم الجهاد في ثلاثة مبادئ تضمنتها الآية الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠).

المبدأ الأول: أن يكون القتال في سبيل الله

بأن يخلص القصد منه إلى أن تكون كلمة الله هي العليا، فالمصلحة الشخصية أو القومية لا تُبَرِّرانِ الحرب، بل تجعلان الحرب غير شرعية ولا يصح أن تسمى جهاداً في حكم الإسلام.

وأهمية هذا المبدأ تظهر من أن القتال أو الجهاد نادراً ما يرد في القرآن دون تقييده بأن يكون في سبيل الله، وأحياناً يكون مقروناً بالأمر بالتقوى.

و(التقوى) اصطلاح قرآني لا يوجد له مرادف في اللغة العربية، وربما لا يوجد في غيرها من اللغات، فهو يعني درجة عالية من الحساسية الخلقية، بأن يتصرف الإنسان وأوامر الله ونواهيه بين عينيه، وأن يشعر بأن الله يراقبه في تصرفه ويراه، وأن الله إليه المآب والمصير.

ولكن من الناحية العملية متى يكون القتال في سبيل الله؟

لقد عرضت الآيات الآتية صوراً يمكن الاهتداء بها لتحديد (ما هو في سبيل الله)، وما يوجد به شرط إباحة الحرب على النحو التالي:

(أ) - رد العدوان:

قال تعالى:﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٤).

وقال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (التوبة: ١٣).

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ (الشورى: ٣٩)

وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠).

وقال تعالى: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى: ٤١)،

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٣٦).

وقال تعالى: ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ (البقرة: ١٩١).

(ب) الدفاع ضد الظلم وحماية المظلومين:

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (الحج: ٣٩-٤٠).

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ (البقرة: ٢٤٦).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ (الممتحنة: ٩).

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الحجرات: ٩).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ٧٥).

وقال تعالى: ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ (الأنفال: ٧٢).

(جـ) الدفاع ضد الإفساد في الأرض:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٣-٣٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ (الحج: ٤٠).

(د) القتال لحماية حق الإنسان في اختيار أن يكون الله هو إلهه، لا إله سواه.

وهذا الحق يقع على رأس حقوق الإنسان في الإسلام، لأنه الغاية من الحياة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران:٦٤).

وقد فهم المسلمون في القرون الأولى أن مهمتهم الكبرى إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، كما عبَّر عن ذلك الصحابي الجليل ربعي بن عامر في مفاوضات المسلمين مع الفرس، في حرب القادسية.

قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: ٢١٧).

وقال تعالى: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ (البقرة: ١٩١).

قال الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾: «يعني الشرك بالله أشدُّ من القتل... وقد بينت أن أصل الفتنة الابتلاء والاختبار، فتأويل الكلام: وابتلاء المؤمن في دينه حتى يرجع عنه فيصير مشركاً بالله من بعد إسلامه أشدُّ عليه وأضرُّ من أن يُقتل مقيماً على دينه متمسكاً عليه محقاً فيه».

وقال الإمام القرطبي في تفسيرها: «أي: الفتنة التي حملوكم عليها وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشدُّ من القتل». وقال في تفسير ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾: «قال مجاهد وغيره: الفتنة هنا الكفر... وقال الجمهور: معنى الفتنة هنا فتنة المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا، أي: إن ذلك أشدُّ اجتراماً من قتلكم في الشهر الحرام».

ويلاحظ أنه لا خلاف بين التفسيرين، فمن فسَّر «الفتنة» بالشرك أو الكفر عبر عن النتيجة، ومن فسرَّها بتعذيب المسلم حتى يكفر عبر عن السبب.

وقال تعال:﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٣).

أخرج البخاري في تفسير هذه الآية عن نافع أنَّ رجلاً أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾؟ قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلاً فكان الرجل يُفتن عن دينه، إما قتلوه وإما يعذبونه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة.

المبدأ الثاني: أن يكون القتال ضدَّ من يقاتل

قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال:٦٠-٦١).

وقال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:١٩٣).

قال الإمام الطبري: عن مجاهد ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ يقول: «لا تقاتلوا إلا من يقاتلكم».

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:١٩٠): عن سعيد بن عبد العزيز قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة: إني وجدت آية في كتاب الله: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، أي: لا تقاتل من لا يقاتلك». وردَّ الطبري على من قال بنسخ الآية بقوله: «وأولى هذين القولين بالصواب القول الذي قاله عمر بن عبد العزيز، لأن دعوى المدَّعي نسخ آية يحتمل أن تكون غير منسوخة بغير دلالة على صحة دعواه تحكُّمٌ، والتحكُّم لا يعجز عنه أحدٌ».

وقال تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ (النساء: ٩١).

قال ابن كثير: أي: «فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك».

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء ٩١)

فسَّر ابن كثير «السلم» بالمسالمة والمهادنة والمصالحة.

وقال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ (الممتحنة: ٨-٩).

المبدأ الثالث: عدم تجاوز ضرورات الحرب

وهذا المبدأ قيد على قاعدة (المعاملة بالمثل) فلا خيار للمسلم في عدم الالتزام بالمعايير الأخلاقية الإسلامية في معاملة العدو، وإن كان العدو لم يلتزم بها. ولا خيار للمسلم في عدم الوقوف عند حدود الله، وإن كان عدوه المحارب تجاوز هذه الحدود، فإذا مثَّل محاربو المسلمين بقتلى المسلمين فلا يجوز للمسلمين معاملتهم بالمثل، وإذا قتل الأعداء نساء المسلمين وصبيانهم أو غير المقاتلين منهم فلا يجوز للمسلمين أن يقتلوا نساء الأعداء أو صبيانهم أو غير المقاتلين منهم.

وقد أفاض المفسرون عند تفسيرهم للآية السابقة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في ذكر ما ورد من النصوص عن الرسول ﷺ وخلفائه تطبيقاً لهذه الآية.

من ذلك ما روى مسلم عن بريدة أنَّ رسول الله ﷺ كان [إذا بعث جيشاً] يقول: «**اغْزُوا وَلاَ تغلوا، ولا تَغْدِرُوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلو الوليد، ولا أصحاب الصوامع**»(1).

(1) صحيح مسلم، رقم: ١٧٣٠.

وروى مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر الصديق بعث جيوشاً إلى الشام فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان... فقال: «إنَّك ستجد قوماً زعموا أنَّهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له... وإني موصيك بعشر: لا تقتلنَّ امرأةً ولا صبيًّاً ولا كبيراً هرماً، ولا تقطعنَّ شجراً مثمراً، ولا تخربنَّ عامراً، ولا تعقرنَّ شاةً ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ، ولا تحرقنَّ نخلاً ولا تغرقنَّه ولا تغلل، ولا تجبن»[1].

قال الطبري - في تفسير الآية: عن يحيى الغساني قال: كتبت إلى عمر بن عبدالعزيز أسأله عن قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ قال: فكتب إليَّ أنَّ ذلك في النساء والذرية، ومن لم ينصب لك الحرب منهم.

وعن ابن عباس في تفسير الآية: «يقول: لا تقتلوا النساء ولا الصبيان ولا الشيخ الكبير، ولا من ألقى إليكم السلم وكفَّ يده، فإن فعلتم ذلك فقد اعتديتم».

وروى الطبري عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣) قال: «يقول: لا تقاتلوا إلا من قاتلكم».

(1) الموطأ رقم: ١٢٩٢.

وقال ابن كثير في تفسير الآية الكريمة ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ (المائدة: ٢): «معناها ظاهر، أي: لا يحملكم بغض قوم قد كانوا صدُّوكم عن المسجد الحرام... عن أن تعتدوا حكم الله فيهم، فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله من العدل في حق كل أحد... وهذه الآية كما سيأتي في قوله: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ (المائدة: ٨) أي: لا يحملكم بغض قوم على ترك العدل، فإنَّ العدل واجبٌ على كلّ أحدٍ لكلّ أحدٍ في كلّ حال».

وقال الإمام القرطبي في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾: «دلَّت الآية أيضاً على أنَّ كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه... وأنَّ المثلة بهم غير جائزةٍ، وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا وغمُّونا بذلك فليس لنا أن نقتلَهم بمثله، قصداً لإيصال الهمِّ والحزن إليهم».

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا﴾: «قال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هي مُحكمَة، أي: قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلوكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم».

وقال عمر بن الخطاب: «اتقوا الله في الذرية والفلاَّحين الذين لا ينصبون لكم الحرب». وكان عمر بن عبد العزيز لا يقتل حرَّاثاً.

ويدلُّ تاريخ الإسلام في كل العصور على أنَّ المسلمين الملتزمين طبَّقوا هذا المبدأ دون استثناء.

ثانياً: في حالة السلم

أبرز مظهر للعلاقات الدولية في حالة السلم المعاهدات.

وقد عني القرآن في زهاء ثلاثين موضعاً منه بالتأكيد على وجوب وفاء المسلم بالعهد وتحريم الإخلال به.

على سبيل المثال قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾** (المائدة: ١).

قال ابن كثير في تفسيره: **﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾** قال بن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني بالعقود العهود. وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك».

قال: « (والعقود) ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره».

وعن ابن عباس (في تفسيرها): «لا تغدروا ولا تنكثوا».

وقال تعالى: **﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾** (الإسراء: ٣٤).

وقال تعالى: **﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾** (التوبة: ٧).

وقال تعالى- في ذكر صفات الناجين-: **﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾** (المؤمنون: ٨، والمعارج:٣٢).

وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ٧٦).

وقال تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ (البقرة: ١٧٧).

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ (الرعد: ٢٠).

وقال تعالى- عن الناكثين-: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٥).

وأكد القرآن أنه حتى في حالة ظهور شواهد نقض العهد من الطرف الثاني، واضطرار المسلمين الذين أبرموا العهد اضطرارهم بسبب ذلك إلى إنهاء العهد، فإنه لا يجوز لهم استغلال هذا الإنهاء لتحقيق مصلحة لهم على حساب الطرف الثاني، بل يجب أن يتم إنهاء العقد في وضع من التوازن بين الطرفين.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٨).

وروى الترمذي وأبو داود عن سليم بن عامر قال: كان بين معاوية والروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى إذا انقضى العهد غزاهم. فجاء رجل على فرسٍ أو برذونٍ وهو يقول: «الله أكبر، الله أكبر، وفاءٌ لا غدر»، فنظروا فإذا هو عمرو بن

عبسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**مَن كان بينه وبين قومٍ عهدٌ فلا يشُدَّ عُقْدَةً ولا يحلُّها حتى ينقضي أمدُهُ، أو ينبِذَ إليهم على سواءٍ**)». فرجع معاوية بالناس[1].

والعقود في الإسلام على العموم واجبة الاحترام، ويجب الدخول فيها بنية الوفاء بشروطها مهما تغيَّرت الظروف. ولكنَّ المعاهدات الدولية في الإسلام لها تميُّزٌ في هذا، فقد روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن النبيَّ ﷺ قال: «**لكلِّ غادرٍ لواءٌ يوم القيامة، يُرْفَعُ له بقدر غدره، ولا غادرَ أعظمُ غدراً من أميرِ عامَّة**»[2].

والفقهاء وهم يرون أن الجهاد يكون مع الأمير الصالح والفاسق، يذهب أكثرُهم إلى أنَّ الجهادَ لا يكون مع الأمير الذي لا يلتزم الوفاء بالعهود.

وعلى خلاف القانون الدولي في الحضارة المعاصرة فإن تغير الظروف لا يبرّر نكث العهد، وحتى إذا عجز المسلمون في ظروف معينة عن الوفاء بالتزاماتهم يجب عليهم مراعاة التزامات الطرف الثاني.

ومن هذا الباب القصة المشهورة عندما استولى القائد المسلم أبو عبيدة بن الجراح على حمص ثم اضطر إلى الانسحاب

---

(1) أبو داود رقم: ٢٧٥٩.

(2) صحيح مسلم، رقم: ١٧٣٨.

منها فردَّ الجزية التي أخذها من السكَّان، وقال: إننا أخذنا الجزية مقابل حمايتكم، وما زلنا الآن لا نستطيع أن نحميكم فقد وجب أن نردَّها.

والأمثلة كثيرة من هذا النوع في التاريخ الإسلامي.

فتغيُّر الظروف، والمصلحة القومية لا تبرِّر في الإسلام نقض العهد، كما لا يُبرِّره أن يرى المسلمون أنفسهم في مركز القوة تجاه الطرف الثاني. وقد ورد النص الصريح في القرآن يؤكِّد ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ (النحل: ٩١-٩٢).

ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٩٥).

مما له دلالة أن نتذكَّر أن الآيات القرآنية نزلت بالتشديد على المسلمين بالوفاء بالعهد في وقت وفي بيئة لم تكن القاعدة فيهما الوفاء بالعهود، يقدم لنا القرآن صوراً لهذه البيئة في قوله: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴾ (الأنفال: ٥٥-٥٦).

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (التوبة: ٧-١٠).

وقال عن اليهود: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ (البقرة: ١٠٠).

وبالرغم من إيقان المسلمين بأنه لا خيار لهم في عدم الوفاء بالعهد تحت أي ظروف، وبالرغم من معرفتهم أن الطرف المقابل لا يحمل مثل هذا الالتزام، إلا أنهم كانوا - كما يظهر ذلك تاريخ الإسلام - يقبلون على إبرام العهد تفادياً للحرب كلما كان ذلك ممكناً بصرف النظر عن عدم تعادل الشروط.

ومعاهدة الحديبية «بالرغم مما تضمنته من شروط تبدو للوهلة الأولى مجحفة في حق المسلمين»، مثل بارز في هذا.

ومثل آخر بارز في العهد العمري بين المسلمين والفلسطينيين سكان إيلياء، فبعد انتصار المسلمين على الروم في معركة اليرموك الفاصلة، وهزيمة جيش أرطبون كانت فلسطين مفتوحة

أمام جيش المسلمين، ولم يكن شيء يحول بينهم وبين الاستيلاء على إيلياء عنوة، فلما عرض السكان إبرام معاهدة الصلح لم يتردَّد المسلمون في قبولها، بالرغم من اشتراط الفلسطينيين شرطاً غير عادي، وهو أن يحضر الخليفة نفسه- في سفر لمدة شهر- ليوقع المعاهدة، والذي يقرأ المعاهدة الآن خالي الذهن من ظروف إبرامها لا يتوقع أبداً أن تكون معاهدة بين جيش منتصر وجيش مهزوم.

ومن المناسب ذكر جزء من المعاهدة، فهي تجري هكذا: «هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أن لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم... وعليهم أن يخرجوا الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن... ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله إلى الروم ويخلي بينهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم».

ليتذكر القارئ أنه وقت كتابة العهد المشار إليه كانت الحرب لا تزال قائمة وعلى أشدها بين المسلمين والروم.

هل منهج الإسلام في العلاقات الدولية واقعي؟

قد يخيَّل لشخص يعيش في هذا العصر أن منهج الإسلام في العلاقات الدولية وما يقتضيه من مبادئ حاكمة، منهج مثالي ليس قابلاً للتطبيق في عالم الواقع، ولكن يرد هذا إنه بالرغم من أن هذا المنهج كان يطبق من جانب واحد فقد طبقه المسلمون كما يشهد تاريخهم على مساحة واسعة من الزمان والمكان. صحيح أن تطبيق المبدأ الثاني من مبادئ الحرب لم يظهر بالوضوح الكافي بسبب أن حالة الحرب الدائمة في العالم كانت حينذاك هي القاعدة. وصحيح أن المبدأ الأول وجد الإخلال به عدة مرات بخاصة في الحروب بين الجماعات أو الدويلات الإسلامية، ولكن هذه الحروب لم تعتبر قط جهاداً».

يوضح ما سبق المقارنات التالية:

أولاً: في حالة الحرب:

١ - تعرضت منطقة معينة هي إيلياء (القدس) للغزو من قبل أتباع ديانات مختلفة، ففي عام ٦١٦م تعرضت لهجوم جيش الفرس. ووصف المؤرخون نتيجة انتصار الغزاة: إحراق المدينة ونهبها وجريان دم سكانها النصارى في مذابح مروعة وإحراق كنائسها وأخذ النفائس والمقدسات غنائم حرب ومنها الصليب TRUE CROSS وشارك اليهود الجيش الغازي في النهب والذبح بسبب عدم رضاهم عن سيطرة النصارى تحت ظل الحكم البيزنطي.

وبعد أقل من عشر سنوات تمكن الجيش البيزنطي من استعادة القدس فنال الفرس واليهود من انتقام البيزنطيين النصارى قدراً لا يقل في الفظاعة عما فعله الفرس واليهود. **وبعد حوالي عشر سنوات دخل المسلمون القدس فلم يهرق دم ولم ينهب بيت ولم يمس بالسوء معبد.**

لقد كان المسلمون بعد وقعة اليرموك وبعد هزيمتهم للقائد البيزنطي أرطبون قادرين على دخول القدس عنوة، ولكنهم فضلوا أن يدخلوها سلماً فصبروا على حصارها مدة تكبدوا فيها خسائر حتى قبل سكانها الصلح، وكما ذكر سابقاً فقد أبرمت معاهدة الصلح بشروط لا يمكن لأحد - لم يعلم عن ظروف إبرامها - أن يتصور أنها كانت معاهدة صلح بين جيش منتصر وجيش مهزوم، لقد تضمنت المعاهدة - والمسلمون لا يزالون في حالة حرب مع البيزانطيين - تخيير الجيش البيزنطي المهزوم ومن يرغب من السكان الأصليين أن يبقوا في القدس ويكون لهم ما للسكان الأصليين (الفلسطينيين) وعليهم ما عليهم، أو أن يلحقوا بالجيش البيزنطي، وفي هذه الحالة يتعهد المسلمون بضمان حياتهم وأموالهم وأسلحتهم حتى يبلغوا مأمنهم.

دخل جيش المسلمين القدس فحافظوا على حياة السكان وأموالهم وتركوا لهم الحرية في قوانينهم الخاصة وقضائهم

والحرية الكاملة لدينهم. بل إن النصارى حينما دعوا الخليفة للصلاة في كنيسة القيامة تكريماً له امتنع معللاً امتناعه بخشيته أن يسجل ذلك سابقة فيعتاد المسلمون الصلاة في الكنيسة حتى يغلبوا النصارى عليها بمرور الزمن.

وبعد عدة قرون هاجم الصليبيون المدينة ودخلوها منتصرين، وسجل المؤرخون الأوربيون أنفسهم الفظاعات والسلوك الوحشي للمنتصرين، فقد قتل الرجال والنساء والأطفال صبراً ودون مقاومة ودون تمييز، وكتب جود فري قائد الحملة إلى البابا يبشره بأن خيول جيشه ظلت تخوض إلى الركب في دماء الكفار (المسلمين).

وبعد عدة عقود من الزمن هزم صلاح الدين الأيوبي جيوش الصليبيين في موقعة حطين. وفتحت أمام المسلمين القدس فدخلوها منتصرين، **فأظهروا من ضروب السماحة ونبل الفروسية والسلوك الإنساني ما أجبر حتى المتعصبين من المؤرخين الأوربيين في ذلك الوقت على الاعتراف به.**

وظل المسلمون يحكمون المدينة والمنطقة بما يحقق الحرية الدينية والمدنية للسكان من غير المسلمين وللحجاج المسيحيين من الأقطار الإسلامية وغير الإسلامية إلى ما بعد وقوع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وفي ظل الانتداب تسارعت هجرة الغزاه اليهود وتمكنوا من إقامة الدولة اليهودية في عام ١٩٤٨م.

وبعد أن كان عدد اليهود لا يزيد عن خمسة وعشرين ألفاً في عام ١٩٠٠م أصبح عدد اليهود بعد إنشاء دولتهم لا يقل عن عدد الذين أخرجوا من ديارهم وأجبروا على اللجوء من السكان الفلسطينيين.

وقد تم ذلك نتيجة المجازر المروعة التي نفذتها العصابات الإرهابية الصهيونية مثل هاجانا (التي تكوَّن منها فيما بعد جيش الدولة) وارجون، وشتيرن وغيرها.

لقد نفذت هذه المجازر بهدف إدخال الرعب في قلوب السكان الأصليين وحملهم على إخلاء البلاد ليحل محلهم عدد أكبر من المهاجرين الصهاينة، وكان القتل يتم بشمولية ودون تمييز ضد الأطفال والنساء والرجال غير المحاربين، واستعمل اليهود مختلف الأسلحة بما فيها الخناجر والسكاكين.

وكان من أشد هذه المجازر فظاعة مذبحة دير ياسين بقرب القدس في ١٠ إبريل ١٩٤٨م على يد عصابة إرجون الإرهابية التي كان يتولى قيادتها منذ عام ١٩٤٤م، مناحيم بيجن (رئيس الحكومة اليهودية فيما بعد والمجاز بجائزة نوبل للسلام) لقد وصف تقرير منظمة الصليب الأحمر العالمية فظاعة هذه المجزرة، وكيف كانت المجندة اليهودية تنفض يدها في الهواء لتتساقط منها الدماء التي علقت بها بعد ذبح من ذبحته من النساء والأطفال، وكتب

فيما بعد مناجم بيجن يبرر هذه المجزرة (كان لهذه العملية نتائج كبيرة، فقد أصيب العرب (أي السكان الأصليين) بعد انتشار أخبار دير ياسين بالهلع، فأخذوا يفرون مذعورين، فلم يتبق على أرض فلسطين إلا مئة وخمسة وستين ألف فلسطيني بعد أن كان عددهم يزيد عن ثمانِ مئة ألف... لولا دير ياسين ما كان يمكن لدولة إسرائيل أن تظهر للوجود).

غني عن التنبيه أن يذكر بأنه ليس المقصود من هذه المقارنة أن يقتنع القارئ بأن الأديان المجوسية والنصرانية واليهودية مسؤولة عن العدوانية والعنف الذي تجلى في سلوك أتباعها، إن العدوانية جزء من الطبيعة البشرية، وإنما المقصود أن يقتنع القارئ بأن الأديان المذكورة فشلت في ترويض الطبيعة البشرية في حين نجح الإسلام في ذلك.

٢- تعتبر المستشرقة الألمانية الراحلة زيجريد هونكه من أوسع المستشرقين اطِّلاعاً على تاريخ الإسلام، وقد وصفت بعبارات مؤثِّرةٍ انتصارَ الصليبيين على المسلمين، واستيلاءهم على القدس، فقالت: «عقب وصول (الصليبيين) إلى هدفهم المنشود -بيت المقدس- طغت حماستهم فجرفت أمامها كلَّ السدود، وانطلقوا سيلاً بشعاً بربرياً يأتي على الأخضر واليابس، وقد أجَّج ذلك صيامُهم ثلاثين يوماً حماسة متعصبة ونذراً للرب

تقريبا. ولقي هذا كله ردّ فعلٍ لدى سفاكي الدماء... من فرسان «الفرنجة» من فرنسيين ونورمان وجموعهم التي انحدرت في طرقات بيت المقدس تحصد الأرواح حصداً، لا تقع على إنسان إلا قتلته.. رجالاً وشيوخاً وولداناً. ويصف المؤرخ الأوروبي ميشائيل دارسيرر كيف كان البطريرك نفسه يعدو في زقاق بيت المقدس وسيفه يقطر دماً حاصداً به كل من وجد في طريقه، ولم يتوقف حتى بلغ كنيسة القيامة وقبر المسيح، فأخذ في غسل يديه تخلصاً من الدماء اللاصقة بها، مردِّداً كلمات المزمور التالي: «يفرح الأبرار حين يرون عقاب الأشرار، ويغسلون أقدامهم بدمهم، فيقول الناس: حقاً، إنَّ للصديق مكافأة، وإن في الأرض إلهاً يقضي» (المزمور ٥٨:١٠ – ١١). أما الميدان الذي يتحلَّق قبة الصخرة والمسجد الأقصى الذي لجأ إليه معظم الأهالي المسلمين الهاربين هلعاً واحتماءً به، فقد تحوَّل تحت زحف الفرنجة المدمر.. إلى حمام دم خاض فيه مهاجمو النصارى حتى الكعبين، مواصلين الإجهاز على المسلمين. لقد كانت الحملة الصليبية الأولى... (١٠٩٥م) بمثابة المقدمة الموسيقية الحزينة لواحدة من كبريات مآسي العبث في تاريخ الإنسانية. لقد حفر ذلك اليوم حفراً يتأبى على المحو أبداً في ذاكرة التاريخ... ولئن كانت الحملة الصليبية الأولى قد انتهت لوقت مؤقت معلوم بالغلبة

الساحقة لمقاتلي النصارى دفاعاً عن المسيح!، فإنَّها كانت في الوقت نفسه هزيمةً أخلاقيةً مهولة سجَّلها تاريخ الإنسانية بحروفٍ من الخزي.. ولقد أيقظت تلك الحملة البربرية ما أيقظت في نفوس المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي... ولن تزال تلك الحملة الصليبية الأولى بقعة عارٍ وخزيٍ لاصقةً بالغرب مشيرةً إليه بإصبع الاتهام»[1].

وفي سبيل المقارنة بين سلوك الصليبيين والمسلمين بهذه المناسبة كتبت زيجريد هونكه: «نذكر هنا الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، الذي نشأ في الغرب تنشئة الملوك الشرفاء. فقد مرَّغ تلك السمعة الطيبة في العار، ودأب على تلويثها بشكلٍ مخزٍ دائماً وأبداً، فبينما أقسم بشرفه لثلاثة آلاف أسير عربي أنَّ حياتهم آمنة فإذا هو فجأة منقلب المزاج، فيأمر بذبحهم جميعاً، ويحذو قائد الجيش الفرنسي حذوه سريعاً. وهكذا لطخ بفعلته النكراء وسفكه تلك الدماء سمعتَه إلى الأبد، وضيَّع ثمرة انتصاره في أذيال الخزي والعار. وعلى العكس من هذا عرفنا صلاح الدين الذي أخزى قوَّاد جيوش النصارى، فلم ينتقم قطُّ من أسراهم النصارى الذين كانوا تحت رحمته، رداً على خيانتهم وغدرهم وفظاعتهم الوحشية، التي ليس لها حدٌّ. ولقد أخزاهم

---

(1) زيجريد هونكه: «الله ليس كذلك» ترجمة محمد المعلم، ص ٢١ - ٢٢ .

صلاح الدين مرةً أخرى حين تمكَّن من استرداد بيت المقدس، التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبلُ بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها مذبحةٌ وحشية وقسوةً، فإنَّه لم يسفك دمَ سكّانها من النصارى انتقاماً لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضارباً المثل في التخلُّقِ بروح الفروسية العالية. على العكس من المسلمين لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزامٍ خلقي يفرض عليها أن تسمح لأولئك «الكفار» بممارسة حقوقهم الطبيعية... كما شعرت تلك الفروسية النصرانية بأنَّه ليس لزاماً عليها أن تلتزم بكلمة الشرف التي تعطيها لغير النصراني... **والحقُّ أنَّ الفروق الحاسمة مع أتباع الملَّة الأخرى راسخةٌ في تفهُّم كلٍّ من الإسلام والنصرانية لطبيعته وفي اختلاف تفهُّم كلٍّ منهما للبشر»**[1].

(٣) عقدت زيجرد مقارنة بين سلوك الصليبين وسلوك المسلمين بمناسبة استيلاء الصليبيين على دمياط، ثم هزيمتهم على يد السلطان الكامل، فكتبت:

«ليس الخيال وحده إذاً هو الحافل بالشهادات القيمة في معاملة الخصم معاملة تخلو من التجني الظالم، وتقيمه موضوعياً، وتقدم له ما يستحق من احترام وتقدير، وتتيح

(1) نفسه، ص: ٣٤: ٣٥ .

للصداقة أن تنمو وترعرع بين الخصوم... ومن الشواهد الدالة على هذا الموقف الأخلاقي أن أحد الألمان الذين شاركوا في الحروب الصليبية بعد عودته إلى وطنه على نهر الراين لم يجد بداً من تحرير رسالة إلى سلطان مصر الملك الكامل يعبر فيها عن مشاعره تعبيراً مؤثِّراً، وقد ترسَّخت في مخيلته المذابح الفظيعة التي أبيد فيها أهل دمياط بمصر جميعهم بناءً على أوامر البابا ومبعوثيه الكرادلة ورجال الكنيسة، وذلك بعد الاستيلاء على حصن دمياط بعد حصار طال.

لم يكن ذلك الألماني سوى عالم الفلسفة اللاهوتيه «أوليفروس» من كولونيا على نهر الراين بألمانيا الذي بهره ما اكتشفه من المروءة والفروسية العربية التي أثبتها في شخصية السلطان الكامل، على الرغم من جميع الأهوال والفظائع التي اعتادها السلطان من قبل النصارى.

ولقد سجَّل ذلك الشاهد ما لمسه بعينه كما لو كان ذلك حدثاً سعيداً لا يمكن للعقل أن يتصوره. فقام بكتابة الرسالة التالية إلى السلطان الكامل عام ١٢٢١ .... إذ إنه لم يقتص من الصليبيين العين بالعين والسن بالسن، وإنما أطعمهم في مسغبتهم مرسلاً إلى جيشهم المتضور جوعاً كل يوم ثلاثين ألف رغيف ومواد غذائية أخرى، وكتب يقول:

«منذ تقادم العهود لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود، خاصة إزاء أسرى العدو اللدود، ولما شاء الله أن نكون أسراك لم نعرفك مستبداً طاغية، ولا سيداً داهية، وإنما عرفناك أباً رحيماً شملنا بالإحسان والطيبات، عوناً منقذاً في كل النوائب والملمات. ومن ذا الذي يمكن أن يشكّ لحظةً في أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله... إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم وأذقناهم مر العذاب، لما غدونا أسراهم وكدنا نموت جوعاً راحوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بهم من خصاصة، وأسدوا إلينا كلّ ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان».

هنا كان ينبغي أن يقرع ناقوس، وأن تتجاوب لرنينه نواقيس أخرى، وإذا كان عربي قد قدم مثل هذا البرهان على السمو الإنساني والمروءة المتناهية، فإن ذلك ليس بدعاً ولا حدثاً منفرداً، فثمَّة شواهد أخرى في هذا الصدد»[1].

(٤) وتعقد زيجريد هونكة مقارنة أخرى بين فتح المسلمين للأندلس وحكمهم لها، ثم استيلاء النصارى الكاثوليك عليها واضطهادهم للمسلمين واليهود والمذاهب الأخرى في المسيحية، فتقول:

(1) نفسه، ص: ٣٣ ، ٣٤ .

«ولا مراء أنَّ تاريخ الغرب نفسه يثبت بالبراهين العكسية الدامغة التي تدحض وتفند التشويهات التي ألصقت بالإسلام زوراً، والتي تحفل بها كتب التاريخ، حيث تسم الإسلام ظلماً وعدواناً بأنه يشكل خطراً يهدد البشرية والحضارة الإنسانية. وحسبُك مثل واحد فريد في نوعه إبان تلك العصور، لِتَفْنِيد تلك التخرصات. ولك أن تقول: الوجه المشرق لتلك الميدالية الحالكة السواد، والذي أشرق على البشرية حقبة مباركة لم تكن بالقصيرة، وإنما قرابة ثمانية قرون، نعني إسبانيا.

إن إسبانيا تحت حكم العرب مثال يبين أنه بينما كانت أوروبا الكاثوليكية دون جبال البرانس تقضي قضاءً مبرمًا على كلِّ دينٍ آخر يجرؤ على الظهور إلى جانب دينها الكاثوليكي- بصفته الدين الأوحد للخلاص-، وذلك باتباعها سياسة التفرقة الصارمة إزاءَ غير النصارى، نرى أن النصرانية لم تُستَأصل ولم تَضِع تحت حكم العرب... كذلك اليهودية... تمتَّعت في ظلال الحكم العربي... لأول مرة بعد الشتات بمطلق الحرية إلى أن استعادت النصرانية الحكم في إسبانيا وطردت اليهود... فوق هذا كله، يبين مثال إسبانيا هذا أن تلك البلاد التي كانت قبل الحكم العربي تتسم بالفقر والخراب والاستعباد، قد استحالت إلى إسبانيا أخرى يرفرف الثراء والرخاء على كل سكَّانها، وتميزت بارتفاع مستوى كل طبقات الشعب وازدهار الحضارة والتمدُّن

فيها وتقدُّمها في كافة العلوم والفنون... واستمرَّ ذلك خمس مئة عام، كما هو ثابت في تاريخنا بلا جدال، إلى أن زحفت إسبانيا النصرانية من الخارج فقوضت كل ذلك وحطمته تحطيماً... إن سماحة النفس العربية وتسامحها... تلك السماحة التي يراها الإسلام شيئاً مفهوماً بداهةً جعله يرتضي ويتقبل وجود النصرانية مطلقاً... إن تلك الحضارة الزاهرة التي غمرت بأشعتها أوروبا لمدة قرون تجعلنا نعجب أشدَّ العجب، إذ هي لم تكن امتداداً حضارياً لبقايا حضارات غابرة... أو أخذاً لنمط حضاري موجود، كما نعرف في الأقطار الأخرى... على أن التربة التي فوقها نمت أغصان الحضارة وبراعمها فجأة تحت حكم العرب أقفرت وظلت عقيماً، استشرى فيها الجدب ولم تتعهدها بالرعاية منذ ذلك الحين قوى حضارية خلاقة تذكر. إن العرب هم الذين أبدعوا إبداعاً يكاد يكون من العدم، هذه الروعة الحضارية الشامخة في إسبانيا تلك الجنة الفريدة الجمال لأساتذة فن المعمار، والمغنِّين والمغنِّيات، والشعراء والشاعرات، والعلماء، بل جنة المرأة التي نسج الغرب حولها صوراً خيالية...»[1].

«إن الشيء الذي يتأبى على فهم الكنيسة هو دخول شعوب الأقطار المفتوحة في الإسلام أفواجاً بمحض إرادتها، دون

(1) نفسه، ص: ٥٢-٥٤ .

مساعي إرساليات التبشير، ودون الإكراه في الدين. أجل، لقد كانت السماحة العربية والروح العربي وأسلوب الحياة العربي هي ما استحوذ على نصارى إسبانيا، وليس كما يزعم المبطلون زوراً عظيماً... بأنهم أرغموا على الإسلام خشية السيف... أما الإجهاز على السماحة والتسامح نهائياً في إسبانيا فقد تمَّ على أيدي الدويلات النصرانية التي اعتصمت في شمال إسبانيا، والتي أقصت العرب شيئاً فشيئاً إلى أن تمكَّنت من صدِّهم وطردهم، متوجة انتصارها باستعادتها عام ١٤٩٢ ميلادية الدرَّتَين العربيتين غرناطة والحمراء إذ لم يكن انتصار النصرانية يعني سوى طرد اليهود والمسلمين واضطهادهم وإكراههم على التنصير واستئناف نشاط محاكم التفتيش التي قامت بتعقب كل من يتخذ سوى الكاثوليكية ديناً، والحرق العلني في احتفالات رسمية تحفُّها الطقوس والشعائر الكنيسة لكلٍّ من اعتنق الإسلام أو اليهودية.

وما إن دالت دولة العرب في إسبانيا حتى اندثرت معهم أزهى وأخصب حضارة ملكتها أوروبا في العصور الوسطى، وغرقت في بحر من الرعب وأتت فيه أمواج التعصب الديني على كل شيء وابتلعته ابتلاعاً. ولم تلغ محاكم التفتيش إلا في عام ١٨٣٤»[1].

---

(1) نفسه، ص: ٤٤-٤٥ .

(٥) مثال حديث للمقارنة: سلوك المحاربين الصرب في البوسنة والهرسك الذين ارتكبوا أفظع الجرائم التي لم يستطع حتى الإعلام الغربي المتحيِّز أن يتجاهلَها. وقد تمَّ ذلك بالمعونة اللوجستية الإيجابية للصرب من بعض دول أوروبا، وبحجب الإمداد اللوجستي عن المسلمين من قبل دول غربية أخرى، بل لقد تمَّ ارتكاب الجرائم بمعونة أو تواطؤ عناصر غربية في قوة حفظ السلام.

وبالعكس فإن المجاهدين المسلمين في البوسنة والهرسك، وإن كانوا محاربين أقوياء إلا أن التزامهم الخلقي حال دون أن يجد الإعلام الغربي من سلوكهم ما يخالف قواعد الشرف العسكري. ولقد حقَّقوا في النهاية انتصارات ربما كانت عاملاً في مبادرة الغرب بوضع اتفاقية دايتون التي تضمن أحد نصوصها وجوب إخراج المجاهدين المسلمين من البوسنة والهرسك، وكذلك وقع.

(٦) أما المثال الأخير فهو ما أظهرته المعلومات التي أفلتت من الحصار الإعلامي عن سلوكيات القوات البرية والجوية في التحالف الدولي في حرب أفغانستان الجارية. لقد أظهرت المعلومات المشار إليها صوراً من السلوك لو نسبت لغير قوات التحالف الدولي المتحضِّر لوصفت بأنَّها همجيَّةٌ ووحشية وجرائم حرب.

ولو وجد إعلامٌ غير متحيِّز لربما صلحت صورة طالبان لتكون هي الصورة المقابلة، وعلى كل فإنه حتى الإعلام المتحيِّز لم يتَّهم جيوش طالبان في أوقات انتصارها باغتصاب النساء أوإحراق أسراهم بالديزل، أو إغراقهم، أو قصفهم إستراتيجياً بقاذفات القنابل أو تصيُّدهم بطائرات الهليكوبتر أو العجن الإستراتيجي لقرى بكاملها حيث تختلط أجسام البشر بأجسام حيواناتهم وأنقاض بيوتهم وأثاثهم وتمسح من على الأرض مسحاً.

على أنَّ طالبان لو ارتكبت مخالفات لقواعد القانون الدولي أو المعاهدات الدولية لكان من السهل افتراض أنَّ هذه القواعد لم تخطر لها ببال وربما لم تسمع بها.

ولكن القادة العسكريين والمدنيين على السواء في جيش التحالف الدولي لا يجهلون هذه القواعد، وربما كان هذا ما أدى بجرمياه بورك أن يضع هذا السؤال: The biggest [whopper] is that the vast majority of those who understand what the Geneva Conventions are, and what they say, just don’t care anymore. so who are the barbarians now? are they those who don’t know better, or who do, and choose not to care?[1]

مَن البرابرة الآن، الذين لا يعلمون عن اتفاقيات جنيف أو الذين يعلمون ثم لا يأبهون بانتهاكها؟

(1) Jeremiah Bourque, “Preemptive Admission of War Crimes,” The Daily Whooper, Nov. 27, 2001. http:// WWW. democraticunderground. com/whopper/01/11/27-preemptive.html.

ثانياً: في حالة السلم

فيما سبق كان الحديث عن منهج الإسلام في التطبيق عن حالة الحرب، أما في حالة السلم فإن **المسلمين الملتزمين بالإسلام**، في كل زمان ومكان، قد اعتبروا القوة الإلزامية للمعاهدات قوة مطلقة، وهذا بالطبع يختلف تماماً مع المنهج الغربي للعلاقات الدولية، إذ يحكم المعاهدة كما يحكم غيرها المصلحة القومية والقوة. فإذا كانت المصلحة القومية للدولة الحديثة انتهاك المعاهدة وكانت قادرة على ذلك بحيث لا تتوقع أيَّ جزاءٍ، فإنها لا تردَّد في تلبية ما ترى فيه مصلحتها:

(1) على سبيل المقارنة: كلا الدولتين إسرائيل والمملكة العربية السعودية وقعتا الاتفاقية الدولية الخاصة بالملكية الفنية. ومع ذلك لا تضج الشركات الأمريكية من انتهاك حقوقها المحمية بالاتفاقية الدولية في أي دولة بقدر ما تضجُّ من انتهاكها في إسرائيل. إسرائيل بالطبيعة صديقة لأمريكا وشريكة إستراتيجية. ولكنها كدولة حديثة لا تهتمُّ أجهزتها التنفيذية بحماية حقوق الملكية لدولة أجنبية على حساب مصلحتها القومية في حدود استطاعتها. وبالعكس فإن الأجهزة التنفيذية في المملكة العربية السعودية في تطبيقها للاتفاقيات الدولية لا تحمي الحقوق الأمريكية الفنية بأكثر من حماية الولايات المتحدة الأمريكية لحقوق المملكة العربية السعودية فحسب، بل أكثر من

حماية الأجهزة التنفيذية الأمريكية نفسها حقوق المواطنين الأمريكيين. والسبب أنَّ المسلم في المملكة العربية السعودية ينظر إلى نصوص المعاهدات كما لو كانت نصوصاً مقدَّسةً، لا يتصوَّر أنَّه يمكن التردُّد في تنفيذها.

وبصرف النظر عن حكمة أو عدم حكمة سلوك الأجهزة التنفيذية السعودية في الالتزام بما لا يلزمها قانوناً، إلا أنَّ المقصود (وهو المطلوب) الدلالة على الروح التي تحكم المسلم تجاه المعاهدات.

(2) في حرب الخليج وقعت مجندة أمريكية أسيرة في يد العراقيين، فاهتمَّت إذاعة B. B. C بالسؤال عن قواعد الإسلام التي تحكم الأسرى، بالطبع السؤال لا محلَّ له، لأنَّ حكومة العراق حكومة بعثيَّة علمانية، وعقيدة البعث لا محلَّ فيها لتحكيم الدين أي دين. فحكومة العراق بمقتضى الحال لن تبحث عن أحكام الإسلام لتطبقها على أسراها، ومهما كان الجواب على سؤال الإذاعة. فإن الجواب الصحيح في حالة الدولة التي وقعت على اتفاقيات جنيف الدولية التي تحكم معاملة الأسرى، أن الدولة التي تطبق أحكام الإسلام سوف تلتزم كحد أدنى بما تنص عليه هذه الاتفاقيات، ثم من فوق ذلك ستعامل الأسير وفق المعايير الخلقية التي يهدي إليها القرآن والسنة الصحيحة وهي بالطبع أوفى من الحد الأدنى الذي تلزم به الاتفاقيات الدولية.

يقارن هذا المثل بمثل حديث العهد، هو معاملة قوات التحالف الدولي لأسرى الحرب في أفغانستان. بالطبع نعلم أن اتفاقيات جنيف لا تسمح بقصف الأسرى بالمروحيات، أو حرقهم بالديزل، أو إغراقهم بالمياه المجمدة، أو رميهم بالرصاص وهم مكتوفو الأيدي من الخلف، أو وهم يصلون، أوالمعاملات اللاإنسانية الأخرى.

ولكن الأسوأ من ذلك أن الأمر لم يقتصر على انتهاك أحكام الاتفاقيات، بل تعدى إلى الجناية على نصوصها، إذ لكي يفر التحالف الدولي من نسبته إلى انتهاك الاتفاقيات الدولية أو نسبته إلى ارتكاب جرائم الحرب سمى المحاربين الذين أسروا وهم في حالة الدفاع ضدَّ الهجوم في المعركة الحربية والبرية إرهابيين ومعتقلين، مقرِّراً سابقة كان لها أشباه ظل العالم الحر يتهم بها الجيش النازي لإلغاء الالتزام كليا بقواعد القانون الدولي والمعاهدات الدولية عن طريق تغيير الاسم والتلاعب بالألفاظ.

الحقيقة أن المعاهدات محور ارتكاز في منهج العلاقات الدولية في الإسلام.

توضيح ذلك أنَّ المعاهدات يمكن أن تكون هي نفسها أساساً لعلاقة أيِّ دولةٍ تطبق الإسلام وتوقعها مع أيِّ دولةٍ أخرى، إذ إن القوة الإلزامية للمعاهدة في جانب الدولة المسلمة ليست هشةً، ولا قلقة، كما شاهدنا في المعاهدات في منهج الحضارة الغربية. إذ سوف تظلُّ المعاهدة وشروطها نافذةً في جانب الدولة المسلمة،

حتى لو تغيَّرت الظروف، وحتى لو ظهر فيما بعد أنَّ المصلحة الوطنيَّة للدولةِ المسلمةِ في انتهاكها، وكانت قادرةً على ذلك.

لقد طبق المسلمون **الملتزمون بالإسلام** منهج الإسلام في العلاقات الدولية كما وصفنا، في كل وقت، وفي كل مكان - بالرغم من أن هذا المنهج كان دائماً يطبق من جانب واحد-. وذلك أكبر دليل على إمكانية تطبيقه عملياً.

لو تحوَّلت الدول الغربية إلى دول متحضِّرةٍ فعلاً، لارتضت الالتزام بتطبيق القانون ومعايير الأخلاق الإنسانية.

*****

تذييل:

لا يفوت التنبية إلى أن التأثير الثقافي الطاغي للحضارة الغربية على العالم الإسلامي جعل دول العالم الإسلامي في كثير من الأحيان تطبِّق المنهج الغربي في العلاقات الدولية، سواء فيما بينها وبين الغرب، أو ما بين بعضها، وغابت في كثير من الأحيان عن الفكر الإسلامي المعاصر مبادئ المنهج الإسلامي، ولم يسلم من ذلك حتى الحركات والجماعات الداعية لتطبيق الإسلام منهج حياة.

والمجال لا يتَّسع للتفصيل وإيراد الأمثلة، وإنما المقصود التنبيه ليتذكَّر من تنفعه الذكرى.

*****



خلاصة

عرف القارئ أن منهج الإسلام في العلاقات الدولية مؤسس على العدل المطلق (حداً أدنى من قبل الطرف المسلم) ويضمن هذا المنهج تنفيذ مبدئه بآلية فاعلة هي القوة الملزمة للاتفاق، ومعلوم أن الاتفاقيات الثنائية أو الدولية بين الدول هي البناء الهيكلي للقانون الدولي.

كما يضمن ذلك بالقوة الملزمة للقيم الخلقية التي هي جزء من الدين ولها قوة نفاذ بالنسبة للمسلم الملتزم أبلغ من قوة القانون ومن السهل على القارئ أن يقارن بين هذا المنهج ومنهج العلاقات الدولية المعاصرة المؤسس على المصلحة القومية والقوة، الذي لا يفسح فيه مجال للأخلاق والقانون إلا لغرض الدعوى والتبرير.

وقد أُوضح فيما سبق عن غموض اصطلاح المصلحة القومية وصعوبة تحديد هذا المصطلح، وأنه لا يعني دائماً محتواه وهو مصلحة الوطن، وإنما المصلحة الذاتية لقوى لديها قدرة الضغط والتأثير.

وفي النهاية لن يجد القارئ في الحقيقة فرقاً بين المصلحة القومية والقوة المبدأ الذي تعتنقه الحضارة المعاصرة في السلم والحرب، والمصلحة الذاتية والقوة المبدأ الذي يعتنقه تجاه غيره

قاطع الطريق في الصحراء أو عصابة الإجرام في المدينة أو التجمع الحيواني في الغابة.

وقد تضمن المقال صوراً للأثر العملي لكل من النهجين على السلام وأمن الإنسان.

*****

الفصل الثالث

منهج مقترح للعلاقات الدولية

وبعد، فلم يكن الهدف من المقارنة السابقة هدفاً نظرياً، وإلا لكان هدفاً هيناً، وإنما يلتمس الكاتب هدفاً عملياً، هو أن يثور السؤال: هل يمكن أن يقدم المنهج الإسلامي - في العلاقات الدولية - العلاج الإيجابي لأزْمة الجنس البشري المعاصرة؟

وبالرغم من سيادة الثقافة الطاغية لمنهج الحضارة الغربية -في العلاقات الدولية- إلا أنه من الصعب افتراض أن هذا المنهج هو نهاية التاريخ.

إن انتشار أسلحة الدمار الشامل يجعل العالم أمام خيارين:

(أ) التهديد بالفناء المادي أو المعنوي أو كليهما، أو

(ب) تغيير المنهج السائد في العلاقات الدولية.

ولتغيير هذا المنهج لا مناصَ- فيما يبدو- من اختيار منهج مثل المنهج الإسلامي حيث **تقوم العلاقات الدولية على أساس العدل المرتكز على أساس الالتزام الخلقي** أو الديني.

إن هذه الفكرة البسيطة هي ما انتهى إليه فيما يبدو عدد من المفكرين الإنسانيين الغربيين، وللتدليل على ما أقول أقدِّم

فيما يلي عينة من الآراء **لمشاهير من المفكرين** الذين **عاصروا الحربين العالميتين**، وكما يلاحظ القارئ حرصت على أن تضم هذه العينة على التوالي: عالماً طبيعياً، ومؤرخاً، وفيلسوفاً كاثوليكياً أوربياً، وفيلسوفاً بروتستانتياً أمريكياً، وفيلسوفاً لا دينياً. راجياً أن تكون هذه العينة معبرة بصدق عن اتجاه عام للتفكير العاقل الحكيم في الغرب.

في سنواته الأخيرة كتب ألبرت أنشتاين:

«لقد ربحنا الحرب، ولكنا خسرنا السلام ... لقد وعد العالم - بعد الحرب - بالتحرر من الخوف، ولكن الخوف - بعد انتهائها - زاد في الواقع. لقد وعد العالم بالحرية والعدل، ولكننا لا نزال نرى قوى "الحرية" تصب النار وتقصف بالقنابل شعوباً **لا لشيء إلا أنها** تطالب بالحرية والعدل والاستقلال. وتدعم بقوة السلاح الأحزاب والأفراد الذين يحققون المصالح الأنانية لتلك القوى»[1].

« لقد أوجدت التكنولوجيا وسائل للتدمير جديدة وفعالة، لم يعهد مثلها الإنسان من قبل، وهذه الوسائل حين تقع **في أيدي** أمم تدعي أن لها **الحق في الحرية المطلقة** للعمل تصبح تهديداً محدقاً بفناء الجنس البشري»[2].

(1) A.Einstein, Out of My Late Years, P. 200 - 201 .

(2) Ibid, P. 136 .

«**إن وسائل الاتصال والإعلام** حينما تتحد مع الأسلحة الحديثة فإنه يمكن حينئذ أن يوضع الجسد والروح كلاهما تحت سيطرة القوة الأقوى، ونكون حينئذ أمام مصدر آخر للخطر يهدِّد المجتمع الإنساني»[1].

وكتب: « إن المجتمع الإنساني يجتاز الآن أزمة حقيقية، وقد انهار استقراره انهياراً شديداً، ومن نتائج مثل هذا الوضع أن لا يكترث الأفراد بمصير الجماعة، بل لعلهم أن يهدِّدوا هذا المصير ... كنت أتحدَّث منذ وقت قصير - مع رجل ذكي متزن عن وعيد حرب عالمية أخرى قد تعرِّض فيما أرى - الجنس البشري لخطر الفناء، فقال - في برود وهدوء شديد -: "ولكن لماذا تنزعج من فناء الجنس البشري؟!" إني على يقين أنه قبل قرن واحد فقط ما كان يمكن أن ترد مثل هذه العبارة على لسان إنسان، إن هذه العبارة لا يمكن أن تصدر إلا عن شخص فقد الأمل في الحصول في نفسه على التوازن بعد أن حاول عبثاً أن يحصل عليه، إن هذا السؤال يعبر عن **عزلة أليمة ووحشة ويأس يعاني منها** - هذه الأيام - **جمهور** من الناس. فما السبب في ذلك، وهل هناك مخرج؟»[1]... «إن محور الأزمة في عصرنا يتعلق بالصلة بين

(1) Ibid, P. 136 .

(2) Ibid, P P. 124-125 .

الفرد والجماعة... إن موقف الفرد من الجماعة يحمل على تضخيم دوافعه الفردية في حين أن دوافعه الاجتماعية- وهي بالطبع أضعف- تتدهور شيئاً فشيئاً، وكل فرد مهما كان مركزه في المجتمع يشكو هذا التدهور، إن الناس يحسون - وهم سجناء أنانيتهم من حيث لا يعلمون - أنهم يعيشون في قلق وعزلة محرومين من الاستمتاع بالحياة الاجتماعية استمتاعاً عفوياً وبسيطاً لا تعقيد فيه، والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن يجد لحياته - بالرغم من قصرها - معنى إلا إذا أعطى من نفسه للمجتمع»[1].

ويرى ألبرت أينشتاين أن المخرج هو في الإيمان بالقيم الإنسانبة، أو بالعودة إلى نوع من الدين، ويقول: «إن الشخص المستنير من الناحية الدينية يبدو لي كأنه رجل حرَّر نفسه - على قدر ما يستطيع - من قيود أنانيته ورغباته الفردية، وشغل نفسه بالأفكار والمشاعر والآمال التي يتعلَّق بها لقيمتها التي تسمو على ذاته»[2]. «الرجل المتدين هو كذلك؛ لأنه على يقين من أهمية تلك الأهداف التي تسمو على الذات... وهي أهداف لا تتطلب أساساً من المحاكمة العقلية؛ لأنها موجودة كأمر ضروري واقعي...

(1) Ibid, P. 128 .

(2) Ibid, P P. 22-23 .

والدين بهذا المعنى محاولة من الإنسان لكي يعي هذه القيم والأهداف... وينشر آثارها على الدوام، فإذا تصورنا الدين والعلم بهذا التصور أصبح الخلاف بينهما مستحيلاً؛ لأن العلم إنما يحقق فيما هو كائن لا فيما ينبغي أن يكون، وتبقى القيم من الضروريات التي لا تدخل في نطاقه. أما الدين فلا يتعرض إلا إلى تقويم الفكر البشري والأعمال البشرية، وبالرغم من انفصال مجال الدين عن مجال العلم فإنه تقوم بينهما علاقات متبادلة قوية ويرتكز أحدهما على الآخر في بعض النواحي، فالدين قد تكون وظيفته تحقيق الهدف، إلا أنه يأخذ عن العلم بأوسع معانيه الوسائل الموصلة لهذا الهدف، والعلم لا يخترعه إلا أولئك المتشبعون حقاً بحب الحق والحكمة، ومصدر هذا الشعور ينبع من الدين... ولا أستطيع أن أتصوَّر عالماً حقاً بغير الإيمان العميق بأن من الممكن أن تكون القواعد التي تطبق على عالم الوجود معقولة، ويمكن التعبير عن هذا الرأي بهذه الصورة: العلم بغير دين أعرج، والدين بغير علم أعمى»[1].

ويكتب أرنولد توينبي: «إن التاريخ قد أعاد نفسه عشرين مرة تقريباً، وفي كل مرة توجد مجتمعات بشرية من النوع الذي ينتمي إليه مجتمعنا الغربي، هذه المجتمعات قد بادت أو هي في طور

(1) Ibid, P. 24 .

الاحتضار، وحين ندرس تاريخ هذه الحضارات البائدة نجد ما يشبه **النموذج المتكرر** في طريقة انهيارها وتدهورها»[1]، «إني لأعجب كيف يعمى عن حقيقة أن **الحضارة الغربية ليست أقوى حصانة من** الحضارات البائدة»[2]. «إذا نحن بحثنا عن العلة في تدهور الحضارات نجد أنه دائماً ودون استثناء: الحرب أو نظام الطبقات أو كلاهما»[3]. «إن نظام الحرب ونظام الطبقات ليسا إلا انعكاساً للجانب السلبي من الطبيعة البشرية، والآثار الاجتماعية الناتجة عن هذه الطبيعة لم تضعف بسبب التقدم المشؤوم الحديث في معرفتنا التكنولوجية، بل تعاظمت وزاد خطرها فأصبح نظام الطبقات قادراً على تفكيك روابط المجتمع بشكل قاطع، كما أصبحت الحرب قادرة على إفناء الجنس البشري بأكمله». «إن المشكلات التي أحاطت بالحضارات الأخرى **وقهرتها** في النهاية قد بلغت **اليوم ذروتها** في عالمنا»[4].

«إن علينا أن نواجه تحدياً لم يسبق لمن سبقونا أن يواجهوه فإما أن نقضي على نظامي الحرب والطبقات، وإما أن نشهر انتصارهما على الإنسان نصراً يكون هذه المرة نهائياً وحاسماً»[5].

---

(1) A. Toynbee, Civization on Trail, P.28.

(2) Ibid, P. 29 .

(3) Ibid, P23.

(4) Ibid, P. 24-25.

(5) Ibid, P. 25.

ويكتب جاك ماريتان: «لقد أفصح عالم الإنسان الحاضر عن الشر وفاض به حتى حطم ثقتنا، كم من جريمة شهدناها لا يعوضها أي عقاب عادل... وكم من مواقف من الامتهان المذل للطبيعة البشرية... لقد اتجه العلم والتقدم نحو دمارنا، وكياننا أصبح مهدداً بالخطر من جراء التحلل لقوى الحكمة والأخلاق واللغة ذاتها قد انحرفت فأصبح اللفظ كأنما لا ينقل إلا خداعا، إننا نعيش- حقاً- في عالم كافكا»[1]. «إن روح الوثنية التي تشربتها حضارتنا ساقت الإنسان إلى أن يجعل هدفه **القوة**، والقدرة على الكراهيه في حين أن المثل السياسي الأعلى يجب أن يكون **العدل**»[2]. «إن كنا نود أن نمهد للسلام... في وعي الأمم فلن يكون ذلك إلا إذا اقتنعنا بأن **السياسة الصحيحة** هي أولاً وقبل كلِّ شيءٍ **السياسة العادلة**... على كل شعب أن يجاهد لكي يفهم نفسية الشعوب الأخرى وتطورها وتقاليدها وحاجاتها المادية والمعنوية، ويعترف بكرامتها ودورها التاريخي. وكل شعب لا يجوز له أن ينظر إلى مصلحته فقط، بل إلى الصالح العام لكل الشعوب... **إن وضع المصلحة القومية فوق كل شيء وسيلة مؤكدة لفقد كل شيء**، إن العالم الحر لا يمكن تصوره إلا بالاعتراف بأن الصدق هو التعبير عمَّا هو واقع، **والصواب هو التعبير عمًا هو**

(1) J. Maritoin, the Range of Reason. P, 201 - 202.

(2) Ibid, P, 195 .

عادل، وليس هو التعبير عمَّا هو نافع في وقت معين لمصلحة مجموعة بشرية معينة»[1]. «إن المساواة الحقة بين الناس تجعل التعصب العنصري والطبقي والطائفي والتمييز العنصري جرائم ترتكب في حق الإنسان، كما تجعله تهديداً قوياً للسلام»[2]. «الحقيقة الواقعة أننا فقدنا الإيمان بالإنسان»[3]، «العقل يقتضينا أن نؤمن بالإنسان ما دام الإنسان جزءاً من الطبيعة، وفي الطبيعة - بالرغم من سيادة قانون تنازع البقاء - نجد أن السلام يتخلَّلها في أعماقها، والإنسان كجزء من الطبيعة لديه جوهر خَيِّر في حدِّ ذاته، إن تطوُّر الكون عبارة عن حركة دائمة - بالرغم من انحرافها الدائم أيضاً - نحو صورٍ أسمى من الحياة، حركة تنتهي دائماً بالفوز النهائي للإنسانية... إن التقدم البطيء للجنس البشري هذا التقدم الذي يمر من خلال سلسلة من المعاناة والألم، يدل على وجود طاقات عند الإنسان تجعل أي ازدراء للجنس البشري صبيانيا لا يستند إلى تفكير سليم»[4].

وكتب رينولد نيبر: «إن الوضع في الحياة الجماعية للإنسان في الوقت الحاضر يدل على أننا حطمنا حياتنا العامة عن طريق

(1) Ibid, P. 183.

(2) Ibid, P. 184.

(3) Ibid, P. 200.

(4) Ibid, P. 201.

القوى الجديدة والإمكانيات التي وضعتها في أيدينا المدنية والتكنولوجيا. وهذه الحياة المحطمة التي تظهر في بؤس العالم كله وقلقه هي حكم تاريخي موضوعي علينا، هي حقيقة الموت الذي ترتب على حياة الغرور التي تعيشها الأمم والشعوب، وهي بغير إيمان ليست إلا فناء»[1].

«إن تاريخنا المعاصر - هو في واقعه - مثل ناصع للوسيلة التي يباغت بها الإله كبرياء الإنسان وغروره واستعلاءه، وللطريقة التي يوقع بها الحكم الإلهي العقوبة على الأفراد والشعوب الذين يرفعون أنفسهم فوق مستواهم»[2].

«إن فرصة انتصارنا على عدونا تكون أقرب إذا نحن قلّلنا من ثقتنا بما عندنا من طهارة... وفضيلة، إن غرور الأمم القوية وإيمانها بفضلها أشد خطراً على نجاحها في مجال السياسة من كيد الأعداء»[3].

«إن الحياة الجديدة التي نحتاج إليها مجتمعين في عصرنا إنما تتحقق بقيام مجتمع يتسع لأن يجعل تعاون كل أمة مع غيرها- في هذا العصر التكنولوجي- أمراً محتَّماً وعدالةً متزنة

(1) R. Neibuhr Christian Realism and Political Problems, P.112 .

(2) Ibid, P. 106.

(3) Ibid, P. 30.

اتزاناً دقيقاً»[1]، «إن العامل الحاسم في إيجاد التماسك الاجتماعي في المجتمع العالمي هو القوة الروحية»[2].

وكتب برتراند رسل: «ما دام نظامنا السياسي قائماً كما هو، فإنَّ من المؤكد أن الحروب العظمى سوف تقع بين الحين والحين، ولا مفر من حدوث ذلك ما دامت هناك دولٌ مختلفة لكل منها سيادتها، ولكل منها قواتها المسلَّحة، ولكل منها **حكمها المطلق فيما يختص بمصلحتها وحقوقها** في أيِّ نزاع ينشب»[3]. «الحرب الحديثة بغض النظر عن شدة فتكها أسوأ في كثير من الوجوه من الحروب التي وقعت في الماضي». «في الحروب المسلية المطمئنة التي وقعت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان المحاربون هم الذين يتعرضون فيها للآلام، أما في هذه الأيام فإن وقع الحرب يتزايد على المدنيين. وإن رجلاً بلغ من العمر مثل ما بلغت ليذكر ذلك الوقت الذي فيه كانت الحرب التي تصيب النساء والأطفال أمراً لا يقع في الحسبان، غير أن هذا العصر السعيد قد انتهى وفات»[4].

(1) Ibid, P. 14.

(2) Ibid, P. 28.

(3) B. Russell, New Hape For a Changing World, P, 92 .

(4) Ibid, P. 92.

«**إن العالم يواجه كارثة محدقة**، وهو يتساءل في حيرة: لماذا لا يلوح في الأفق مجال للنجاة من مصير مؤسف لا يرغب فيه الإنسان؟! إن السبب الرئيس في ذلك أننا لم نهيئ عقولنا للتعامل مع وسائلنا التكنولوجية وما زلنا نسمح لأنفسنا بطرق للتفكير ربما كانت تتلاءم مع عصر أكثر بساطة في وسائله التكنولوجية. فإن أردنا أن نحيا حياة سعيدة بوسائلنا التكنولوجية... فلا مناص لنا من نبذ بعض الآراء والاستعاضة عنها بغيرها، فنستعيض **بالمساواة عن حب السيطرة**، وبالذكاء عن الأعمال الوحشية، وبالتعاون عن التغالب، **ونستعيض بالعدالة عن حب الغلبة** وشهوة الانتقام»[1].

وبعد، فحتى لو قبلنا رأي المفكر الأمريكي جون موريس كلارك في الحضارة المعاصرة بأنها حضارة نخرت جذورها حتى لم تعد تستطيع حمل ثقل جذعها، وفروعه المنتشرة على مساحة واسعة»[2]، وأن «القوة بغير هدف إنساني أصبحت وثناً يعبد ويقود الحضارة إلى حافة الانهيار»[3]، وأنه لا معنى أن نأمل -في عالم أسلحة الدمار الشامل- بقيام عالم آمن تسوده الحرية والديمقراطية، حتى لو قبلنا هذا الرأي فلا أقل من أن نقبل النتيجة التي انتهى إليها هذا

(1) Ibid, P. 92.
(2) J.M.Clark, The Economics of Responsibbiliity. P.119.
(3) Ibid, P. 60.

المفكر من أنه: «لا بدَّ من تنمية قدرتنا على التفكير السليم والعمل البنَّاء، إذ إن ذلك هو فرصتنا الوحيدة للكفاح بالرغم من سيف دامو كليز المسلط على رقابنا»(1).

*****

(1) Ibid, P. 7.

خاتمـــة

ماذا يمكن أو ما يجب أن يعمل

أولاً: بالنسبة للمسلمين.

لاحظ برتراند رسل أن الغرب أهدى للشرق مساوئه: القلق، وعدم الرضى، والروح العسكرية، والإيمان الغالي بالآلة. ولكن الدول القوية في الغرب تحاول دائماً صرف الشرق عن أفضل ما لدى الغرب: روح البحث الحر، والتعرف على الظروف التي تؤدي إلى الرفاهية التامة، والتحرر من الخرافة[1].

كمثل على صحَّة ملاحظة رسل فإن الإرهاب الذي يعتبر الآن مرادفاً للفظ مسلم في لغة الغرب- كان ضمن هدايا الغرب للعالم الإسلامي. ألا نتذكر أنَّ أول مبنى عام تم تفجيره على سكانه في الشرق الأوسط (وهو فندق ديفيد في القدس)، وأن أول طائرة مدنية أسقطت في الشرق الأوسط (وهي طائرة الخطوط الليبية) كلاهما نفذا بأيدي أناس ينتمون لعالم الغرب المتحضِّر.

---

(1) B. Russell. New Hope For a Changing World P. 7 .

بل إن كلمة «إرهاب» بمعنى Terrorism حديثة في اللغة العربية وقد شاع استعمالها بعد وجود حركات الإرهاب الصهيونية في فلسطين في النصف الأول من القرن المنصرم؛ هاجانا، شتيرن، إرجون.. إلخ. فشاعت الكلمة في اللغة العربية وصفاً للنشاطات الإرهابية لتلك العصابات.

لكن ربما كان أسوأ هدايا الغرب للعالم الإسلامي في مجال السياسة تقديس الميكيافيلية وقبول المقياس المزدوج للعدل، والتسليم بمبادئ الغرب في العلاقات الدولية. وقد ساعد على تقبل العالم الإسلامي لها ضعف جهاز المناعة الإسلامي ضد هذه الشرور، غلبة الشعور بالنقص الناشئ عن الانبهار بما لدى الغرب من قوة الفكر والتكنولوجيا، وبما استطاع الغرب أن يحقّقه داخل مجتمعاته من الديمقراطية، والعدالة الاجتماعية، والمساواة أمام القانون بالمقارنة بما ترزح تحته مجتمعات العالم الإسلامي- أحياناً بمساعدة الغرب- من تخلُّف، وظلم، واستبداد، وحرمان من الحرية، والعدل الاجتماعي، والقانوني.

غير أن العالم الإسلامي لم يكن في يوم من الأيام منذ أن بدأ تعرضه للغزو الغربي في ميدان الثقافة الشريرة مهيَّئاً لصحوة النائم، وإدراك الجانب السلبي للحضارة الغربية كما هو مهيَّأٌ في الوقت الحاضر؛ ذلك أن الإنسان مفطور بطبعه على

كراهية الظلم - إذا كان صادراً من غيره - حتى لو كان واقعاً على غيره، فكيف إذا كان هو الضحية؟!

وفي السنوات الأخيرة - وهي سنوات أصبحت فرص الوعي فيها أكبر - مرت المجتمعات الإسلامية بسلسلة من أشنع المظالم ظهرت في صور من الوحشة والهمجية والتنكر لكل المعاني الإنسانية، وقد صدرت من العالم "المتحضر" وبمباركته مثلاً في فلسطين، والبوسنة والهرسك، وأفغانستان والعراق، بل إن ما كان الإعلام الغربي يصفه على حقيقته بأنه حركة ضد الظلم والاستعباد في تركستان الشرقية، وكشمير أصبح على لسان الساسة الغربيين إرهاباً يبرِّر التحالف الدولي للقضاء عليه.

مَغْزَى ما سبق أن البيئة الفكرية في العالم الإسلامي مهيأة الآن للتعرف على الجانب السلبي للحضارة الغربية وإدراك خطر وخطل المبادئ السياسية الغربية في العلاقات الدولية. وأصبح المسلم الآن أكثر استعداداً للثقة بمنهج الإسلام وأنه طوق النجاة للعالم إذا أراد أن يتغلب على قوى الشر.

وإذاً، فعلى أهل الفكر والرأي أن يبذلوا أقصى جهد لتوعية الجماهير في العالم الإسلامي بأمرين:

١) المنهج الإسلامي في علاقة الإنسان بغيره، وأنه لا خيار للمسلم - إذا أراد أن يبقى مسلماً حقيقياً - إلا الالتزام بهذا

المنهج والمبادئ التي تبنى عليه، وأن واجبه الديني في ذلك لا يقل عن واجبه في أداء العبادات من الصلاة والصوم والحج.

٢) كشف حقيقة الجوانب السلبية للحضارة الغربية، والتوعية بنتائج هذه الجوانب الفكرية والعملية، والإلحاح على تعرية صورها الحقيقية ممثَّلة في الحوادث الواقعية، وفي تصريحات الساسة والمفكِّرين لا بقصد إثارة الكراهية ضد الغرب، وإنما إثارة الكراهية ضد المبادئ الشريرة في الثقافة الغربية.

وأبلغ أثراً من كل هذا أن يهتمَّ المربُّون بهذه النواحي، ويضمنوا مناهج الدراسة عناصر كافية للوفاء بهذا الفرض، ليس في مادة التاريخ والجغرافيا فحسب، بل في غيرهما من مواد الدراسة، ولا سيما دروس الدين.

ولا بد بعد ذلك وقبله من إنعاش روح الأمل لدى المسلم، وتذكيره بأن من مقتضى دينه الإيمان الذي لا يتزعزع بأن السلام ممكن على الأرض، وأنها سوف تُملأ عدلاً كما ملئت جوراً، وأن نور الله - الذي تريد قوى الشر أو الإشراك أن يطفئوه بأفواههم - لا بدَّ أن يتم: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الروم: ٦).

ثانياً: بالنسبة لغير المسلمين:

إذا كانت الحقيقة الواقعة كما يرى جاك ماريتان «إن الغرب فقد الإيمان بالإنسان»، فلا بدَّ لتهيئة العالم الغربي لقبول تغير منهجه السياسي اللاأخلاقي، أن يعاد إليه الإيمان بالإنسان كمطلب أولي للتغيير.

ويتشابه الفيلسوفان الكاثوليكي واللاديني في الحكم بإمكانية التغيير، وطريقه.

فبينما يؤكد ماريتان الكاثوليكي على ضرورة إنعاش الإيمان والأمل لدى الإنسان ويرى «أنه في أسعد فترات التاريخ كان الشر يعمل في خفية لتحقيق أهدافه، وكذلك فإنه في أحلك العصور ظلمة يظل الخير على أهبة دائمة يعمل باستمرار لتحقيق انتصارات غير متوقعة وغير ظاهرة»[1]، ويرى «التطور التاريخي... لا يتحقق في يوم واحد، فلا بدَّ من عامل الزمن ليتمكن العقل من السيطرة على الوسائل المادية المروعة التي وضعتها في أيدينا الثورة الصناعية التكنولوجية، ولا بدَّ من عامل الزمن لإنضاج الثورة الخلقية والروحية وبعثها من أعماق الخبرة البشرية»[2].

---

(1) J. Maritain, The Range of Reason, p. 203 .

(2) Ibid, P. 203.

يرى رسل اللاديني «إن التغيير العقلي المنشود شاقٌّ جداً، ولا يتمُّ في يوم واحد، على أنه إن أدرك المربون إلحاح هذا الهدف وعملوا له، وإذا أمكن بجهودهم أن ينشأ الصغار كمواطنين عالميين لا كأفراد في عالم من المتقاتلين الذين يعيشون على السلب والاستعباد، فإنه يمكن حينئذ أن نأمل في إنقاذ الجنس البشري من الهلاك العالمي الشامل الذي يهدِّدنا به السعي في سبيل تحقيق أفكار بائدة».

إنه لمنطقي جداً الاعتقاد بأنه في عصر ثورة المعلومات والاتصالات تكون المسؤولية الأولى للعمل من أجل الخلاص من براثن الخطر المحدق بالفناء تقع على المفكرين وعلى المربين.

ومن أجل هذا الهدف جرؤ قلم متواضع على كتابة هذه الورقة.

*****

(1) B. Russell. New Hope For a Changing World P. 160 .

مراجع أشير إليها في البحث

1- Arnold J. Toynbee, Civilization on Trail. New York, 1948.

2- Reinhold Niebuhr, Christian Realism and political Problems. New York, 1953.

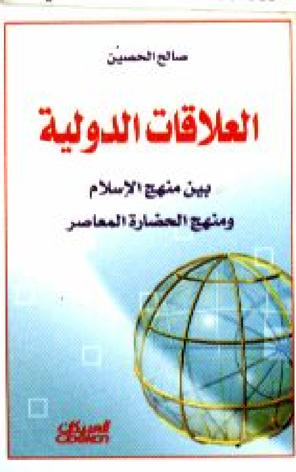
3- Albert Einstein, Out of My Later Years. Edison, 2005.

4- John Maurice Clark, Alternative of Serfdom. New York, 1948.

5- Bertrand Russell, New Hope for A Changing World. New York, 1951.

6- Jacque Maritians, The Range of Reason. London, 1953.

*****



شهد القرن المنصرم حربين عالميتين خلال خمسة وعشرين عاماً، واستهل القرن الحالي بحربين عالميتين خلال خمسة عشر شهراً، لم يكن الزمن هو الفارق الوحيد بين حربي القرن المنصرم، وحربي القرن الحالي.

لكن صفة مشتركة برزت بين الحروب الأربعة، قيام التحالف الدولي بعمليات عسكرية لا تقتضيها الضرورة الحربية، وإنما اقتضاها التنفيس عن الحقد والاستجابة لداعي الكراهية والعدوانية والرغبة في الانتقام.

ومن هنا تظهر أهمية البحث عن منهج في العلاقات الدولية يختلف عن المنهج السائد الفاعل في الحياة المعاصرة. وهذا هو ما دعا إلى كتابة هذا الكتاب الذي سوف يهتم بالمقارنة بين المنهج المعاصر في العلاقات الدولية والمنهج الذي جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرناً.

المؤلف

موضوع الكتاب: العلاقات الدولية في الإسلام
موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com


ISBN:978-9960-54-360-4
9789960543604
ORD:000278-1